جيوكوندا بيللي



رواية

اللا متناهي في راحة اليد

ترجمة:
صالح علماني

شبكة مكتبة الإسكندرية

alexandra.ahlamontada.com

اللامتناهي في راحة اليد

رواية

Author : Gioconda Belli	اسـم المـؤلـف :جيوكوندا بيللي
Title : El infinito en la Palma de la Mona	عنوان الكتـاب :اللامتناهي في راحة اليد
Translator : Saleh Almani	ترجـــمـــة :صالح علماني
Al- Mada : P.C.	النـاشـــــر :المدى
First Edition : 2009	الطبـعـة الأولى :٢٠٠٩
Copyright © Al- Mada	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

جيوكوندا بيللي

اللامتناهي في راحة اليد

رواية

ترجمة صالح علماني

هذا الكتاب مهدى إلى ضحايا
حرب العراق المجهولين.
ففي مكان ما من تلك البلاد، بين دجلة
والفرات، كان هناك فردوسٌ ذات مرة.

وتكـون بابـل كُوَمـاً ومـأوى بنـات آوى ودهـشاً
وصفيراً بلا ساكن.

سفر ارامياء، الإصحاح 51، 37

ونهاية كل اكتشافاتنا ستكون
الوصول إلى المكان الذي بدأنا منه والتعرف إليه
أول مرة.

ت. س. إليوت

لترَ العالم في حبة رمل،
والسماء في زهرة برية،
اجمع اللامتناهي في راحة يد
والأبدية في ساعة واحدة.

و. بليك

ملاحظة من المؤلفة

ولدت هذه الرواية من دهشة اكتشاف المجهول في قصة كنت أعتقد، لأنها قديمة، أنها تعرف الحياة كلها.

ومع أنني كنت أُفتن على الدوام بالقصة التوراتية عن بداية العالم وأبطاله الأصليين الأوائل، إلا أن فكرة إعادة بناء دراما آدم وحواء في الفردوس الأرضي جاءت نتيجة حدث عرضي مفاجئ.

فقد اضطررت ذات مرة إلى الانتظار وقتاً طويلاً في مكتبة إحدى العائلات ـ غرفة صغيرة على جدرانها الأربعة رفوف وصناديق تضم مجلدات يغطيها الغبار مكومة على الأرض ـ. جالت عيناي على الرفوف مارة على كعوب الكتب. كنت أعرف أنها نسخ قديمة أخرجها صاحبها للتو من قبو كانت مخبأة فيه منذ سنوات طويلة. استرعت انتباهي مجموعة مجلدات تشير أغلفتها البنية إلى مرور الزمن. وعلى كعبها يُقرأ العنوان المكتوب بحروف مذهبة: *كتب مقدسة وآداب شرقية قديمة*. وتحته يحدد: بابل، الهند، مصر... حتى يصل المجلد الأخير إلى: *كتب سرية كبرى*.

تناولت هذه النسخة الغامضة، وفتحت بافتتان صفحاتها الضاربة إلى الصفرة، إنها نصوص منتحلة، نسخ من العهدين القديم والجديد، وبالرغم من أنها كُتبت في القديم، مثلها مثل النسخ الرسمية التي يضمها الكتاب المقدس كما نعرفه اليوم، إلا أنها لم تُضم إليه لأسباب مختلفة عن القانون الكنسي. إنها استعادة، يؤكد المحرر،

للكتب الكبرى التي رفضها من طبعوا النصوص المقدسة. ومن بينها كتب اخنوخ، ورؤى باروخ، وكتاب نوح المفقود، وآناجيل نيكديمو، وكتب آدم وحواء التي تضم: حياة آدم وحواء، ورؤيا موسى، وكتاب حواء السلافي.

وباستثارة من يتوصل إلى اكتشاف مثير ومشوق، قرأت أولاً النص الذي يتناول حياتي آدم وحواء. تبدأ الرواية بخروجهما من الفردوس، وتروي أعمالهما ومخاوفهما حين وجدا نفسيهما مجردين فجأة من كل الامتيازات في عالم مقفر ومجهول. وبينما أنا أقرأ النص المنحول تذكرت بقوة القصة التي قررت في ذلك المساء كتابتها عن آدم وحواء.

احتاج ذلك مني لسنوات من البحث في المخطوطات والقصص التوراتية الضائعة. وقد قادني البحث إلى أعمال تبدأ بمكتبة نجع حمادي التي عثر عليها راعٍ في كهوف مصر العليا عام 1944، حتى مخطوطات البحر الميت المشهورة التي عُثر عليها في وادي قمران عام 1947، وحتى «الميندرا»، وهي تعليقات كتبها على امتداد قرون حاخامات متفقهون، في سعي منهم لتوضيح لغة العهد القديم الشعرية، الغامضة في بعض الأحيان والمتناقضة في أحيان أخرى.

وهكذا اكتشفت أنه على الرغم من أن آدم وحواء لا يشغلان سوى أربعين آية من سفر التكوين، إلا أن قصتهما وقصة أبنائهما: قايين وهابيل، ولولوا وأكليا، تظهر في عدد من الحكايات والتفسيرات القديمة.

وبتسلحي بتلك القراءات المترعة باستنتاجات كاشفة وفاتنة، أطلقت العنان لمخيلتي لأستحضر في هذه الرواية خلفيات تلك الدراما القديمة، ومشهد الفردوس السريالي، وحياة ذلك الثنائي الشجاع والمؤثر.

ومع أنني لست متدينة، إلا أنني أرى أنه كانت هناك امرأة أولى ورجل أول، وأنه يمكن لهذه القصة أن تكون قصتهما.

وهذه الرواية بالتالي هي تخييل يستند إلى تخييلات كثيرة أخرى وتفسيرات وإعادة تفاسير نسجتها البشرية حول أصولنا منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة.

إنها، في دهشتها وحيرتها، قصة كل واحد منا.

جيوكوندا بيللي

I. وخلقهما رجلاً وامرأة

1

وكان.

فجأة. من اللاكينونة صار كائناً يعي ما كانه. فتح عينيه، تلمس نفسه وعرف أنه رجل، دون أن يعرف كيف عرف ذلك. رأى الحديقة وأحس أنه مرئي. نظر في كل الاتجاهات آملاً في أن يرى آخر مثله.

وبينما هو ينظر، نزل الهواء عبر حنجرته فأيقظت الريح الباردة حواسه. شمَّ. تنفس ملء رئتيه. وأحس في رأسه بالتقلب المضطرب للصور الباحثة عن تسمياتها، فانبثقت الكلمات والأفعال من أعماقه نقية وواضحة لتحط على كل ما يحيط به. سمّى، ورأى أن ما يسميه يتعرف على نفسه. هب النسيم على أغصان الشجر. غرد العصفور. فتحت الأوراق الطويلة أياديها المرهفة. أين هو؟ تساءل. لماذا لا يظهر ذاك الذي يرصده بنظرته ولا يسمح بأن يُرى؟ من هو؟

مشى دون تسرع حتى أغلق دائرة المكان الذي مُنح فيه الوجود. الخضرة، أشكال النباتات وألوانها تغطي المشهد وتغوص في نظرةٍ تبعث السعادة في صدره. سمى الأحجار، الجداول، الأنهار، الجبال، الوهاد، الكهوف، البراكين. وتفحص الأشياء الصغيرة كيلا يزدريها: النحلة، الطحلب، النَفَل. كان البهاءُ يبلبله أحياناً، فيقف غير قادر

على الحركة: الفراشة، الأسد، الزرافة، نبضات قلبه الثابتة التي ترافقه كما لو أنه موجود ـ بغض النظر عن إرادته أو معرفته ـ بفعل إيقاع لم يُمنح إمكانية إدراك الهدف منه. وبيديه أحس بأنفاس الحصان الدافئة، وبرودة الماء الجليدية، وخشونة الرمل، وزَلَقِ حراشف السمك، ونعومة فراء الهر. وبين حين وآخر كان يستدير بغتة على أمل أن يفاجئ الآخر الذي يبدو حضوره أخف من الهواء، وإن كان شبيهاً به. غير أن ثقل نظرته كان مؤكداً. يحس بها آدم على جلده مثلما يحس بالنور الدائم الذي يغطي الحديقة ويضيء السماء بأنفاس متلألئة.

بعد أن فعل كل ما كان مقدراً له أن يفعله، جلس الرجل على حجر ليكون سعيداً ويتأمل كل شيء. جاء حيوانان، هرّ وكلب، ليستلقيا عند قدميه. وبالرغم من كل محاولاته تعليمهما الكلام، لم يتوصل إلا إلى جعلهما ينظران إليه بعذوبة.

فكر في أن السعادة طويلة ومتعبة قليلاً. لا يستطيع لمسها ولا يجد وظيفة ليديه. كانت الطيور سريعة جداً وتحلق عالياً. وكذلك السحب. وكانت الحيوانات ترعى وتشرب. وكان هو يتغذى على بتلات بيضاء تسقط من السماء. لم يكن بحاجة إلى شيء، ولا يبدو أن هناك من يحتاج إليه. أحس بالوحدة.

وضع أنفه على الأرض وشم رائحة العشب. أغمض عينيه ورأى دوائر ضوء متحدة المركز تتسع وراء جفنيه. وكانت الأرض الرطبة تحت خاصرته تشهق وتزفر محاكية صوت تنفسه. داهمه نعاس حريري وثير. استسلم للإحساس. وسيتذكر في ما بعد أن جسده قد انفتح، وأن شقاً قسم كيانه وأُخرجت منه المخلوقة الحميمة التي كانت تقبع في داخله حتى ذلك الحين. كان شبه عاجز عن

الحركة. البدن في تجسده كخادرة يتصرف كما لو أنه هو غير قادر على عمل شيء سوى انتظار ما سيأتي في شبه الغيبوبة. وإذا كان لديه شيء واضح فإنما هو حجم جهله، فذهنه يغص برؤى وأصوات لا يجدل لها أي تفسير. توقف عن التساؤل واستسلم لثقل أول نوم له.

استيقظ متذكراً غياب وعيه. تسلى بالتعرف على قدرات ذاكرته، بلعب لعبة النسيان والتذكر، إلى أن رأى المرأة بجانبه. ظل ساكناً يتفحص ذهولها، بطءَ مفعول الهواء في رئتيها، والنورَ في عينيها، والوضع الانسيابي الذي ترقد به وتتعرف إلى نفسها. تخيل ما الذي يحدث لها، اليقظة البطيئة من العدم إلى الوجود.

مدّ يده وقرّبت يدها مفتوحة. تلامست راحتيهما. وزانا بين يديهما، ذراعيهما والساقين. تفحصا التشابهات والاختلافات. أخذها للتجوال في الحديقة. أحس بأنه ذو نفع، وأنه مسؤول. أراها النمر، وأم أربع وأربعين، الـ mapache، والسلحفاة. ضحكا كثيراً. تقافزا مرحاً، تأملا تنقل الغيوم وتبدل أشكالها، واستمعا إلى ترنيمة الأشجار الرتيبة، جربا كلمات لوصف ما لا يُسمى. كان يعرف أنه آدم ويعرف أنها حواء. وكانت تريد معرفة كل شيء.

ـ ما الذي نفعله هنا؟ ـ سألت.

ـ لا أدري.

ـ من الذي يستطيع أن يشرح لنا من أين أتينا؟

ـ الآخر.

ـ وأين هو الآخر؟

ـ لا أعرف أين هو. ما أعرفه فقط أنه يتابعنا.

وقررت هي البحث عنه. قالت إنها شعرت أيضاً بأنها مراقبة. عليهما الصعود إلى الأمكنة العالية. ربما يجدانه هناك. ألا يكون طائراً؟ فقال هو معجباً بنفاذ بصيرتها: ربما. توغلا وسط شجيرات شذية وأشجار وافرة الأغصان، وصلا دون تعجل إلى البركان الأكثر ارتفاعاً. صعدا، ومن القمة تطلعا إلى دائرة خضرة الحديقة المحاطة من كل الجهات بغمامة ضباب كثيفة ضاربة إلى البياض.

- ماذا يوجد في ما وراءها؟ - سألت.

- سحب.

- وفي ما وراء السحب؟

- لا أدري.

- ربما يسكن هناك من يراقبنا. هل حاولتَ الخروج من الحديقة؟

- لا. أعرف أنه غير مُقدر لنا الخروج إلى ما وراء الخضرة.

- وكيف تعرف ذلك؟

- أعرفه.

- مثلما تعرف الأسماء؟

- أجل.

لم تتأخر كثيراً في التوصل إلى نتيجة أن النظرة التي تراهما ليست نظرة طائر. فطائر الفينيق ذو الريش الأحمر والأزرق كان قد حام فوق رأسيهما، غير أن نظرته كانت خفيفة، مثلما هي نظرة بقية الحيوانات.

- أتكون تلك الشجرة - غامرت بقول ذلك وهي تشير إلى منتصف الحديقة ـ انظر يا آدم، انظر إليها. قمتها تلامس السحب كما لو أنها تلعب معها. ربما تحت ظلها يسكن من يرانا أو ربما كان ما

نشعر به هو نظرة الأشجار. إنها كثيرة وموجودة في كل مكان. يمكن لها أن تكون مثلنا، والفرق الوحيد أنها بكماء وثابتة في مكانها.

ـ من يراقبنا يتحرك ـ قال آدم ـ لقد سمعتُ وقع خطواته على الأوراق اليابسة.

بدأت تنادي. واستغرب أن تكون لديها أنَّة بهذا العمق، نواح هواء في جسدها الذي بلا أجنحة. كانت قد وقفت بجانب النهر مفتوحة الذراعين. شعرها الأسود يتهدل على ظهرها. استثار بروفيلها النائي والتام آدم، ووجهها بعينيه المغمضتين وفمه المفتوح قليلاً، ينساب منه ذلك النداء. تساءل إذا ما كانا يضيعان الوقت في تخيل آخر مثلهما مختفٍ في الدغل، هناك حيث من المحال تمييز هذه الشجرة عن تلك. ولكنه لم يشعر هو والمرأة بنظرته وحسب، وإنما كذلك بصوته يهمس لهما اللغة التي يتواصلان بها ويتفاهمان فيما بينهما بتدفق متزايد. بل يظنان أنهما رأيا ظله وهو يترصد معكوساً في حدقتي الكلب وحدقتي القط. قال لنفسه ربما لن يستطيعا رؤيته إلا بعد أن تنضج عيونهما وتصير غير جديدة. مازالت لديهما صعوبة في تمييز ما هو موجود داخلهما وما يريانه في ما حولهما. وكانت حواء بصورة خاصة تخلط بين شيء وآخر. فهي تؤكد أنها رأت أكثر من كائن برأس إنسان وصدره، وحزذونات تطير، ونساء ماء. فمنذ ظهرت بجواره، لم تهدأ قط. كما لو أنها ولدت من أجل هدف ـ دون أن تعرف ما هو ـ يُنشط حركاتها الطويلة والناعمة ويجعلها تتهادى بجانبه، تتمايل وتتبختر مثل نخلة في مواجهة النسيم. هياجها الدائم كان في نظره سراً غامضاً يجب حله. ولكنه يفتقد التأمل الهادئ الذي كان يسلو نفسه به قبل ظهورها. وبالرغم من أنها تضطره إلى

الركض من هنا إلى هناك مثل ظبي وليد، إلا أن سماعها تضحك أو تتكلم يُشعره بسعادة أكبر بكثير من الصمت والوحدة.

سمعا أصوات دوي هائلة تأتي من أطراف الحديقة. رأيا انبثاق اندفاعات حمراء وظلمات بعيدة تومض متقطعة، وذيول شُهب تجتاز قبة السماء. أما فوقهما بالمقابل، فظلت السماء مضيئة كالعادة بنور ذهبي يزداد حدّة ويخفت دون أي نظام قابل للإدراك. تململت الأرض تحت أقدامهما، فاقتربت حواء على رؤوس أصابع قدميها لاعبة لعبة عدم فقدان التوازن. وظل هو ينظر مبهوراً إلى أصابع تتبسط وتتقبض كما لو أنها مصنوعة من أسماك صغيرة.

لم يتذكر آدم الشجرة التي في وسط الحديقة. وبدا له غريباً ألا يكون قد انتبه إلى وجودها وهو الذي يظن أنه جاب المكان من أقصاه إلى أقصاه.

ـ الذي يرانا لا يريد أن يُرى ـ كانت تتساءل بهذه الطريقة ـ ولكن علينا العثور عليه يا آدم، يجب أن نعرف لماذا يراقبنا، ما الذي ينتظر منا أن نفعله.

اقترح آدم أن يتبعا مسار أحد الأنهار. توغلا في الغابة الرطبة. امتلأت حاسة شمهما بالروائح القوية والنفاذة المنبعثة من الأرض الخصبة حيث تنمو كل أنواع السرخس والفطور والأوركيدا. أعشاش صُفاريات تتدلى نحيلة ومتشابكة من الأغصان العالية حيث الأشنيات والطحالب تتهدل فوق رأسيهما كأنها نسيج مخرم. رأيا دببة متكاسلة تنام معلقة بذيولها. وجماعات من القردة الصاخبة تطل متقافزة على قمم الأشجار. وكانت تخرج لهم تابيرات، عصافير، وأرانب تلمس سيقانهم بمودة. ومع أن أحشاء الخضرة الدافئة كانت

تحتضنهما ضاجة بالحياة، فقد سارا بصمت، مستسلمين للتضمخ بأجواء أصوات وروائح فردوسهما الخفي.

كثافة الغابة جعلتهما يسيران في دوائر ويفقدان الاتجاه مرة بعد أخرى، ولكنهما ثابرا. ووصلا أخيراً إلى وسط الحديقة. واكتشفا أنه من هناك تنطلق الدروب التي تتفرع بعد ذلك، والأنهار التي تجري نحو الشرق ونحو الغرب. وكانت الشجرة التي يغطي جذعها التراب والماء هائلة. فأغصانها تضيع في الأعالي بين السُّحب، وفي أسفل تمتد إلى أبعد مما يبلغه البصر. أحس آدم بدافع يدفعه إلى الانحناء أمام عظمتها. وتقدمت حواء لتقترب أكثر. وبصورة غريزية حاول هو وقفها، ولكنها عادت تنظر إليه نظرة إشفاق.

- إنها لا تستطيع الحركة - قالت - ولا تتكلم.

- لا تتحرك. لا تتكلم - قال - ولكننا لا ندري ما الذي هي قادرة عليه.

- إنها شجرة.

- ليست أي شجرة. إنها شجرة الحياة.

- وكيف عرفتَ ذلك؟

- فور رؤيتها عرفتُ ما هي.

- إنها بديعة حقاً.

- متسلطة. وأقول إنه عليك ألا تقتربي كثيراً.

وإذا بدا أن الشجرة تشله، كانت المرأة تكاد لا تستطيع كبح الرغبة في لمس جذعها الثخين والمتين، العذب واللامع. بهاء كثير يغمر العيون أينما اتجهت، ألوان كثيرة، وطيور ووحوش مهيبة أراها إياها الرجل بتكبر، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يبدُ لها ببهاء

الـشجرة. امـتلأت مخيلتهـا بـأوراق. كانـت الأوراق لامعـة، لـسطحها العلـوي خـضرة براقـة خلافـاً لقفاهـا الأرجـواني الـذي تـبرز فـيه عـروق ثخينـة واضـحة. وبـدا أن الأوراق المغروسـة فــي مـا لا حـصر لـه مـن الأغـصان الممتـدة فـي كـل الاتجاهـات تبتلـع النـور وتُطلقـه ليـضيء المكان المحيط. وكانـت قشور الثمـار المكـورة البيـضاء تتلألأ معلقة بضوء فوسفوري تشع به الشجرة على أرجاء الحديقة. وكلما اقتربـت، كانـت حـواء تحـس بأنفـاس الـشجرة المثمـرة كأنهـا تحـريض غـير معروف لفمها، تيار حياة جارف تبعثه لكل ما يحيط بها. اجتاحتهـا، مثل آدم، قشعريرة تبجيل هائلة وارتابت فـي انـدفاعها الأولـي إلى لمس لحاء جذع الشجرة وأكل ثمرها. كانت قريبة جداً، وصار جلد الجذع الخشبي فـي متنـاول يـدها. وكمـا لـو أن الأمـر انعكـاس علـى سـطح بركـة سـاكنة: كانـت هنـاك شـجرة أخـرى مماثلـة إلى حـدّ التطـابق تنتصب أمامها، غريبة ومتواطئة. فكل ما هو مضيء فـي الأولى كانـت قاتماً في الثانية: سطوح الأوراق أرجوانيـة وقفاهـا أخـضر، وثمارهـا تـين قاتم. يحيط بها هواء كثيف وضوء كامد بلا بريق.

أمـا آدم الـذي ظـل مختبئـاً يراقبهـا، فلحـق بهـا عنـدما دارت حـول استدارة الجذع واختفت وراءه.

ولم يكن قد توصل بعد إلى رؤية المرأة عندما سمعها تتكلم. مـن تراهـا تكلم، تساءل. فحتـى ذلـك الحـين لم يلتقيـا بمخلـوق آخـر يملـك كلاماً يبين مشاعر الجسد. فالقط والكلب وبقية الحيوانات تتواصل فيما بينها بأصوات بدائية. وإذا كـان سماعها قد أدهـشه، إلا أن رؤيـة الشجرة مكرورة فـي هيئةٍ مطابقةٍ بألوانٍ معاكسة أذهله تماماً. ودون أن يُحـدث ضـجة تـابع تمتمـة كلماتهـا. رآهـا تجلـس علـى جـذر ضـخم مغروس فـي الأرض كمـا لـو أنـه أحـد أطـراف مـا توصـل إلى الظـن أنـه

انعكاس لما تفكر فيه شجرة الحياة عن نفسها. ربما أن الشجرة، قال لنفسه، تنظر ما تتخيله بدلاً من التكلم. وكان على وشك الظهور في الجانب المقابل من الجذع الضخم، عندما سمع الصوت. وظن أن الآخر قد سمحَ أخيراً بأن يُرى، ولكن الشكوك داهمته. فالصوت لا يشبه الصوت ذا البدن الخفي الذي يعرف همسه، الصوت الخفيف مثل الهواء له سمة الرنين في صدره. أما هذا الصوت فأشبه بسائل ينزلق على الأرض كأنه يدحرج أحجاراً. سمع ضحكته. إنه يضحك مثل المرأة، ويقول:

ـ هل انتبهتما إذاً إلى أننا نراقبكما؟ يا للفطنة! وانشغلتما بالبحث عنا؟ رائع! لقد ارتبتُ بأن ذلك يحدث ولكن يسعدني التأكد منه. لا يمكننا مقاومة الرغبة في تأملكما. لقد كان ذلك مسلياً.

ـ أنت لست وحدك إذاً؟ أنت أيضاً لك رفيق؟

ـ رفيق؟ أنا؟ همممم. لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة قطّ.

ـ ولكن، هل هناك أحد سواكِ؟

ـ إلوكيم. هو من خلقكما.

ـ الرجل يقول إنني خرجت منه.

ـ أنتِ كنت مخبأة داخل الرجل. إلوكيم خبأكِ في أحد أضلاعه؛ وليس في رأسه، كيلا تكتشفي الغطرسة، ولا في قلبه، كيلا تراودك الرغبة في التملك.

هذا ما قاله الصوت. وواصل هو الاستماع.

ـ وماذا يوجد في ما وراء الحديقة؟ ولماذا نحن هنا؟

ـ لماذا تريدين معرفة ذلك؟ لديك هنا كل ما تحتاجين إليه.

ـ ولماذا يجب ألا أود معرفته؟ ما أهمية أن أعرفه؟

ـ إلوكيم وحده من يعرف ذلك. وإذا استسلمتِ لإغواء ثمر هذه

الشجرة ستعرفين ذلك أنتِ أيضاً. ستكونين مثله. ستدركين علة الأشياء. ولهذا أنا موجودة هنا، عند أصل شجرة معرفة الخير والشر، لأحذركِ، لأنك إذا أكلتِ منها ستفقدين البراءة وتموتين ـ وابتسمت تلك المخلوقة بخبث.

تساءلت حواء من أي شيء هي مصنوعة تلك المخلوقة. فجلدها مختلف عن جلدها هي، إنه لامع ومرن، مكوّن من حراشف صغيرة جداً، مثل حراشف السمك. وهي طويلة القامة، هيئتها تنساب بانحناءات وضمور لتنتهي بأقدام وأيدٍ طويلة ومرنة. وفي وجهها الأملس، شبه المسطح، تبرز عينان ذهبيتان وحادتان، عينان مشقوقتان، وشق فم ثابت على تعبير تواطؤ ساخر وصلف. وبدلاً من الشّعر، كان رأسها مغطى بريش أبيض.

ـ هو يفضل أن تظلا هادئين ومستكينين، مثل الهرّ والكلب. المعرفة تسبب القلق وعدم الرضا. يتخلى أحدنا عن تقبل الأشياء مثلما هي ويحاول تغييرها. وانظري ما الذي فعله هو. في سبعة أيام أخرج كل ما ترينه من الخواء. تصور الأرض وخلقها: السموات، الماء، النباتات، الحيوانات. وأخيراً خلقكما رجلاً وامرأة. وهو اليوم يستريح. وبعد ذلك سيضجر. لن يعرف ما يعمل وسيكون عليَّ أن أهدئه من جديد. هكذا كانت الحال منذ الأزل. كوناً بعد كونٍ، يخلقها ثم ينساها بعد ذلك.

كان آدم المختفي خلف الشجرة يسمع الحوار بين حواء وتلك المخلوقة ممتلئاً بالفضول. أحس بضيق في صدره وتسرع في أنفاسه. إنه يتذكر همسات الآخر يحذره من شيء حول تلك الشجرة. عدم

الاقتراب. عدم اللمس. دون أي تفسير لسبب أنه لا يريدهما أن يفعلا ذلك. وواجبه الوحيد الذي يشعر أن له مغزى حتى الآن هو مرافقته المرأة، وإن كانت هي نفسها تعتني بنفسها على أحسن وجه. والأمر نفسه يحدث للحديقة. فالنباتات تنمو وتتمدد على سجيتها دون تدخل منه. بدت له نبرة صوت المخلوقة التي تتبادل الحديث مع حواء مألوفة بصورة غامضة. إنها النبرة نفسها التي يتساءل هو نفسه بها عن نوايا الآخر. إنه شبيه بصوت نفاد صبره حين يُجهد نفسه لفهم علة وجوده.

ـ أنت تظنين إذاً أن الأمر بهذه البساطة ـ كانت حواء تقول ـ. أقضمُ ثمرة هذه الشجرة فأعرف كل ما أود معرفته.

ـ وتموتين.

ـ لا أعرف ما هو هذا الذي تقولين. وهو لا يقلقني.

ـ مازلتِ فتية على القلق.

ـ وأنت، كيف عرفتِ هذا كله؟

ـ إنني موجودة قبلك بكثير. لقد قلتُ لكِ إنني رأيت خلق هذا كله، ولستُ أفهم كذلك المغزى المراد منه. إلوكيم يُخرج تحولات لامتناهية من العدم. ويمنحها الكثير من الاهتمام.

ـ وأنتِ لا؟

ـ أرى فيها ممارسة عديمة الجدوى لا تخلو من تكبر.

ـ أوتظنين أننا نزوة من نزوات إلوكيم هذا الذي ذكرتِه؟

ـ أنا لا أعرف في الحقيقة. ويبدو لي أحياناً أن الأمر كذلك. ما المغزى من وجودكما؟ سينتهي بكما الأمر إلى الضجر في هذه الجنة.

ـ آدم يظن أنه علينا فلاحة الأرض، والعناية بالنباتات والحيوانات.

ـ ما الذي تتوجب العناية به؟ وما الذي تتوجب فلاحته؟ كل شيء قد فُعل. كل شيء يجري بدقة كاملة ـ وكبحت تثاؤباً ـ ومع ذلك فإنكِ

أنتِ وآدم، خلافاً لكل مخلوقات الأكوان الأخرى، تملكان حرية تقرير ما تريدان. لكما حرية الأكل أو عدم الأكل من هذه الشجرة. إلوكيم يعرف أن التاريخ لن يبدأ إلا عندما تستخدمان هذه الحرية، ولكنه يخشى كما ترين أن تستخدماها، يخشى أن ينتهي الأمر بخليقته إلى الشبه به. إنه يفضل أن يتأمل انعكاس براءتكما إلى الأبد. ولهذا حظر عليكما الأكل من الشجرة وتقرير أن تكونا حرين. ربما ليست الحرية لكما. أترين، فمجرد الفكرة أصابتك بالشلل.

- يمكن القول إنك تتمنين أن أقضم هذه الثمرة.

- لا. كل ما هنالك أنني أحسدك لامتلاكك إمكانية الاختيار. فإذا أكلتما الثمرة، ستصبحين أنت وآدم حرين مثل إلوكيم.

- وما الذي كنتِ ستختارينه أنتِ، المعرفة أم الخلود؟

- إنني أفعى. وقد قلتُ لكِ إنني لا أملك إمكانية الاختيار.

نظرت حواء إلى الشجرة. ما الذي سيتغير إذا ما تجرأت على قضم ثمرتها؟ ولماذا عليها أن تصدق الحيّة؟ ولكنها لم تتجرأ على القيام بالتجربة مع ذلك. نظرت إلى يديها، حركّت أصابعها الطويلة واحداً فآخر وآخر.

- سأعود - قالت.

2

بعد أن سبحا واستلقيا تحت الشمس، انسحب كل من الرجل والمرأة إلى داخل نفسه. ما الذي يفكر فيه آدم؟ تساءلت حواء. ما الذي تفكر فيه حواء؟ تساءل آدم.

لكن أياً منهما لم يكن قادراً على التكهن بما يفكر فيه الآخر. كانا مستلقيين على العشب ينظران إلى أسراب النمل التي تبني بيتها، تحمل أوراقاً صغيرة على ظهورها وتمضي في صف منتظم نحو ثقب في الأرض يشكل ملجأها. وفي ما حولهما، كانت الخضرة مبهرة، يقطعها هنا وهناك بروز ألوان أغصان وشجيرات محملة بأزهار. وكان النهران اللذان يجتازان الحديقة يتشكلان من أربعة روافد. أشد تلك الروافد سكوناً، وإلى جانبه كانا مستلقيين، يشق طريقه عبر منحدر تستقر على سفوحه صخور هائلة منحوتة، خضراء ـ رمادية، تجبر التيار على الانكسار، كبح اندفاعه، والزغردة بين خضرة الصنوبريات وغطاء السرخس الوثير ذي الأوراق الكبيرة المسننة. استنشقت حواء الرائحة النباتية وأحست بالهواء الدافئ يجفف جسدها ويمر عليه خفيفاً ومبهجاً. وكان آدم أيضاً مستسلماً لأحاسيس الريح وعبق الحديقة الزخم، والتقافز المرح الصاخب لدبة سوداء على الضفة المقابلة. كانت الأشجار تتهامس بلغة أوراقها فوق رأسه. وعلى فنن منخفض، يعكف كناري على تنظيف ريشه بمنقاره. وبين حين وآخر تنطلق من حنجرته نغمة عالية وحادة تبدو كأنها تتضمن كل الأصوات المحيطة الأخرى.

ما الذي عنته الحية حين أكدت أن ما أسمته «**التاريخ**» لن يبدأ إلا عندما يستخدمان حريتهما؟ ولماذا قالت إنها تحسدهما على تمتعهما بإمكانية الاختيار؟ ولماذا قالت إنه عليهما ألا يأكلا من شجرة المعرفة بينما هي تحثها في الوقت نفسه على الأكل منها؟ وما هي علاقتها بـ **الآخر**؟ وما الذي يخشى **الآخر** أن يعرفاه؟ لم تكن حواء قادرة على فهم الأحجية. ولم تكن تفهم، قبل ذلك كله، لماذا قرر ذلك المدعو إلوكيم شغل بالها بهذه الطريقة. لماذا كشف لآدم عن وجود الشجرة في وسط الحديقة، وطبع في عظامه طريق الوصول إليها؟ ولولاها هي ما كان آدم ليذهب حتى هناك. إنه لم ير قط تلك الأشجار، كما قال لها معجباً بفضولها، وبالحدس الذي قادها إليها. نظرت إلى آدم المستلقي على العشب وذراعه مرفوعة لتغطية عينيه، وصدره يعلو ويهبط بحركة إيقاعية. كان الرجل ضخماً، طويل القامة، سطوح بدنه مسوية، بلا خطوط محددة. بروز عضلاته وحده هو الذي يشبه الاستدارات والتكورات الغالبة فيها. وتساءلت إذا ما كان إلوكيم قد نحته من صخرة في الجبل، وإذا ما كان قد صنعها أصغر حجماً وأشد ليناً كيلا تسبب ألماً للرجل عند إخراجها من جوفه. أيكون قد صاغها مفكراً في ثمرة، أو رابية؟ كانت راغبة في معرفة ذلك.

فكر آدم في أنه يكاد يكون بإمكانه سماع ما تفكر فيه. ماذا سيفعل لإبقائها بعيدة عن الشجرة؟ الانصياع ليس من طبيعتها. وأفضل ما فيها هو عدم قدرتها على البقاء هادئة، والحيوية التي نظرت فيها وسألت عن كل شيء منذ البداية.

هطل المطر. ومع المطر سقطت البتلات البيضاء التي يتغذيان

عليها. علّمها هو كيف تنتزع ورقة موز وتبقيها مفتوحة إلى أن تمتلئ ببتلات بيضاء. وبعد المطر ظهر قوس قزح. إنه مثل جسر بين السماء والأرض، قال هو، ولكنني لم أرَ أحداً يجتازه قط.

ـ لماذا استطاعت المخلوقة التي عند الشجرة، المدعوة حيّة، أن ترى إلوكيم ونحن لا؟ ـ سألت حواء.

ـ من الغريب أن تكون قد سمت نفسها ـ علق آدم ساهماً.

ـ ألا تظن أنها قد تكون هي نفسها إلوكيم؟

نظر إليها آدم مذهولاً من قدرتها على التفكير في أمر كهذا.

ـ ولماذا لا تكون؟ يبدو أنها تعرف كل ما يفكر الآخر فيه ـ أصرت حواء.

ـ ربما هي انعكاس له.

ـ قالت إننا نحن انعكاس لإلوكيم.

ـ مثلما هي شجرة المعرفة انعكاس لشجرة الحياة؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ ولكننا إذا كنا انعكاساً له، لا يمكن للحيّة أن تكون كذلك. فهي لا تشبهنا.

ـ ألا يكون ثمة انعكاس لنا نحن أيضاً؟

ـ لا أدري يا حواء. إنك توجهين أسئلة كثيرة لا يمكنني الرد عليها. سأواصل البحث عن الآخر. ابقي أنتِ هنا. ولا تتكلمي مع الحيّة. اهدئي. فأنت قلقة جداً.

اقتربت هي من حافة الماء وقادتها قدماها نزولاً بمحاذاة الضفة. كان ماء النهر صافياً، وبين الصخور تلمع حراشف أسماك متعددة الألوان. سمكة كبيرة حمراء، حول فمها لطختان بيضاء وسوداء

كانت تسبح بحزم نحو مكان تُرى فيه مياه ساكنة. تبعتها. وصعدت على صخرة سوداء بارزة فوق البركة وجلست تتأمل السمكة التي تتحرك بعذوبة في العمق دون أن تعكر سكون الماء. وفجأة، تعالت سلسلة فقاعات من العمق، وخرجت عينٌ لا يدري أحد من أين وفتحت جفنها. نظرت إليها، وما إن فعلت ذلك حتى أتيح لها أن ترى، من خلال بلورية العين المتماوجة، صوراً دوارية مدهشة، تظهر فيها وهي تقضم ثمرة التين، ومن هذا الحدث الضئيل تنبثق سلسلة هائلة من رجال ونساء سريعي التلاشي والشفافية يأخذون بالتكاثر، ينتشرون ويتوزعون في مناظر عظيمة، وجوههم تلمع بإيماءات وملامح لا حصر لها، وجلودهم تعكس ألواناً متنوعة، ابتداء من بريق جذوع الشجر الرطبة حتى بتلة زهرة الوردية الشاحبة. وفي ما حولهم تنبثق أشكال، وأشياء بلا أسماء، يتحركون بينها بحزم ودون تسرع، متفحصين وفضوليين، يلاحقون حشداً من الرؤى التي تتفرع بدورها مظهرة أغواراً عميقة وطبقات رموز غير مفهومة يستغرقون في الجدل حول معناها بخليط من الصخب والوئام، غير أن أصداءها ترن في داخلها كما لو أنها، حين تجهلها، تعرفها. ومع الدوران السريع لمراحل متتالية، رأتهم مختفين ومضطربين، يتأججون لهفة ويؤتلون، يخلقون نزاعات رهيبة ويتغلبون عليها، وينبعثون منها مرة بعد أخرى. وجوههم تتجدد دون كلل في الحركة الدائمة لذلك الحشد المتحمس والصاخب الذي ينزاح إلى أماكن مجهولة مكثراً من الإيماءات وحركات اليدين، ومظهراً انفعالات تصرّ أو تطفو في السائل الذي يعكسها، ورأت هي فيها إلى جانب رغبة المعرفة التي تنهشها، تيارات وارتباكات عميقة تمنت لو أنها قادرة على إيجاد تسميات لها. إطلالها على ذلك الصخب المتحمس والعنيد، ولمح الأمكنة المجهولة،

والإحساس بهمهمة دمها ترد على قدر سريع العطب ومشترك، استثار فيها رقة ورغبة أعمق مما أثارها في نفسها أي شيء آخر حتى ذلك الوقت. والمثير للفضول أن الصورة الأخيرة التي برزت قبل أن يعود الماء إلى سكونه كانت شديدة الوداعة والصفاء ولم تتوصل إلى معرفة إذا ما كانت هي التي تعود للتعرف إلى نفسها في **الحديقة** أم أن سرّ نهاية ذلك كله هو إمكانية العودة إلى البداية.

إنه **التاريخ**، قالت لنفسها. لقد رأته. فهذا هو ما سيبدأ إن هي أكلت الثمرة. إلوكيم أراد لها أن تقرر إن كانت تريد أن يوجد ذلك كله أم لا. فهو لا يريد تحمل المسؤولية. يريد لها هي نفسها أن تتحمل المسؤولية.

3

هرعت بحثاً عن آدم. لم تجده في المرج حيث اعتاد أن يُعلّم الكلب الطاعة وتخمين أفكاره. ولم تجده في الغابة، ولا راجعاً إلى ضفة النهر. وحين تعبت، توقفت وجلست على العشب. تطلعت فيما حولها بحنين، كما لو تنظر إلى ذكرى. رأت الخضرة، والماء، والجبال الزرقاء.

أي اختلافات هناك بين الصور التي رأتها في الماء والأخرى التي تتبدى لها وهي تمشي في أنحاء الجنّة، متوحدة، دون أن تكون خطوات آدم إلى جانبها تحول بينها وبين مخيلتها؟ آدم يطلق تسمية رؤى على المخلوقات الخرافية التي تتوجس هي وجودها في أركان الخضرة الكثيفة حيث يتسرب القليل من الضوء الذهبي: نساء ماء يلعبن مع فراشات ذات شعور طويلة ووجوه دقيقة باسمة، وطيور ذات صوت بشري تناقش شؤون الدنيا مع حيوانات لها صدر البشر، وأوراق ضخمة تظهر فيها كتابات مبهمة، ومخلوقات هائلة تتغذى على سحب كثيفة تنتزعها من السماء، وحرذون يبصق ناراً وهو يطارد جسداً طويلاً جداً ويهاجمه، دون أن يعرف أنه جسده، كما لو أنه ينتمي إلى غيره.

وخلافاً لتلك الرؤى ذات الطبيعة المتبدلة والخاطفة، كانت رؤى النهر بينة، واضحة، واقعيتها أشد جزماً من واقعية الحديقة نفسها. وفكرت في أنها حين رأتها لم تُمنح المشاركة في النظرة الكلية

الآتية من أعماق إلوكيم وحسب، وإنما كذلك اختبار وفرة الحياة التي تغمره، وكان فيضها سيلاً متدفقاً لا كابح له، ينفلت من إرادته نفسها، ليتحول إلى خلق وينبثق من رغبته قبل أن يتاح له الوقت لأن يندم. قدر كائنات ربما تتحرك بفعل ما سمته الحيّة حرية، وربما تسعى لتجاوز إرادته الخالقة وتعيش أبعد منها، لا بد أنها تبدو مدهشة لإلوكيم على الرغم مما تنطوي عليه من تحدٍ له. ولهذا يحثها على العمل لإيجاد هذا العالم. الفضول في رؤية هذه الكائنات تخلق نفسها ويدمر بعضها بعضاً يبدو له أمراً لا يُقاوم مثلما يبدو لها هي نفسها.

سيظن الرجل أنها رؤى استثارتها فيها الحيّة لتحرضها على عصيان الأمر بعدم أكل ثمرة شجرة معرفة الخير والشر. ولن يصدقها حين تقول له إنها ما لم تتجرأ على كسر هدوء الحديقة وطمأنينتها، فإن مخلوقات لا حصر لها ستبقى محرومة من الوجود. وهما نفساهما لن يوجدا إلا كحلم حالم عبقري يتخيل مخلوقات حرة ثم يتركها لتعيش بعد ذلك مثل الأزهار والعصافير. طبيعتها تأبى تقبل أن يكون الهدف من وجود آدم ووجودها لا هدف له سوى تأمل تلك الأبدية حيث تحوّل السكون مؤخراً إلى انتظار متوتر، تحاصره نظرة الآخر باستمرار. لقد أخطأت الحيّة في ظنها أن أكل ثمرة الشجرة سيجعلهما مثل إلوكيم. على العكس. سيتحولان عن التشبه به. سينفصلان. سيصنعان التاريخ الذي خُلقا لصنعه: سيؤسسان جنساً من الكائنات، وسيعمران كوكباً، ويرتادان حدود الإدراك. ويمكن لها هي وحدها، باستخدام حريتها، أن تقدم لإلوكيم تجربة الخير والشر التي يتلهف إليها. لقد صنعهما على صورته وشاكلته كي يتوليا بنفسيهما مسألة الخلق.

فكرت في أن آدم لن يتفهم ألعاب **الآخر** وتصميمها هي ما لم يرَ ما أتيحت لها رؤيته. وإذا ما خُيّر، فربما سيختار البقاء الرتيب في **الجنّة**. عليّ أن أفعل ذلك وحدي، قالت لنفسها. وفي ركن قريب من البركة جلست تستمع إلى فوران أفكارها. كان التردد والتصميم تيارين متعارضين يصعدان وينزلان في جسدها. تغمض عينيها وترى صور النهر. لماذا عليها هي أن تكشف ما يخبئه المحظور؟ لماذا تكون المختارة لكسر سراب **الحديقة**؟ من تكون يا إلوكيم؟ أين أنت؟ متى ستبدي لنا وجهك؟

نهضت وبدأت المشي نحو وسط **الحديقة**، باتجاه شجرة معرفة الخير والشر، حيث ستكون الحيّة بانتظارها.

4

ابتسمت الحيّة بعذوبة وسخرية حين رأتها تظهر من وسط الأجمة الكثيفة.

ـ لقد عدتِ سريعاً ـ قالت لها.

ـ هل توجد جنان أخرى أم أن هذه هي الوحيدة؟

ضحكت الحيّة.

ـ أيمكن لي أن أعرف سبب هذا السؤال؟

ـ رأيتُ في أعماق النهر صوراً غريبة، لكنها تبدو مع ذلك أشد واقعية منك ومني ومن هذا كله. وأحسستُ أن وجودها متوقف عليّ.

ـ وماذا تظنين أن عليك عمله للتوصل إلى ذلك؟

ـ عليّ أن أستخدم حريتي. أن آكل الثمرة.

ـ ألستِ خائفة؟

ـ إلوكيم يريدني أن أفعل ذلك.

ـ ليس هذا ما قاله لي.

ـ أعرف ذلك ولا أفهمه.

ـ ربما يخشى الحرية. فتَأَوُّج الخالق في خلق تحرٍ له، غير أنه لا يمكن معرفه ما الذي يريده إلوكيم. ولا يمكنك القول إنني لم أحذركِ. قد تموتين. وإن كنتُ أوافق على أنه سيكون من العبث أن يدمركما ولما يمض إلا زمن قصير على خلقه لكما.

ـ لن أموت. أعرف ذلك. وهو ينتظر مني أن آكلها. ولهذا جعلني حرة.

ـ يمكنك أن تقرري عدم فعل ذلك.

ـ لا. سيكون ذلك الطريق الأسهل. ولم يعد الأمر ممكناً. إنني بحاجة إلى المعرفة.

ـ عليكِ أن تعرفي ـ ضحكت الحيّة ـ. الحقيقة أنه خلقكما على شَبَهه. وهو من يعرف كل شيء.

ـ ومن يخشى المعرفة. ولكنني لا أشعر بالخوف. لقد رأيتُ أشياء كثيرة. ولماذا كان عليّ رؤيتها إذا أنا لم أجازف لأن توجد؟

ـ ربما لكي تتقبلي أنه لا يمكنك معرفة كل شيء.

ظلت ساهمة. كانت قد اجتازت المرج تحت نظرات الجاموس والفيل المتيقظة، فلحقا بها. وعندما وصلت إلى وسط **الجنَّة**، عند أصل الشجرة، كانت كثيرة الحيوانات التي تتبعها، وكانت خائفة ومفتونة في آن واحد. نظرت حواء في ما حولها. لم تكن واثقة من أنها تمتلك الشجاعة لفعل ما يمليه عليها وعيها، غير أنه لم يعد أمامها خيار آخر. فالجنَّة كلها تنتظرها.

ـ سألمس الشجرة أولاً. وسنرى إن كانت تسبب لي الموت حقاً.

ـ انظري إليّ أستلقي عليها ولم يحدث لي شيء. فالموت ليس بالأمر السهل.

ـ لقد رأيت الموت ولم يرق لي. ما الذي سأشعر به إذا مت.

ـ لن تشعري بشيء. وهذه هي المشكلة بالضبط. لن تشعري بشيء إلى الأبد. فالموت بسيط بساطة رهيبة ـ ابتسمت الحيّة.

أسرعت حواء. كانت يداها تتعرقان. وبدا لها أن الهواء يكاد لا يصل إلى رئتيها. مدت يدها. لمست راحة يدها اليمنى جلد الشجرة

النباتي الخشن. فتحت أصابعها. سمعت ضربات جسدها الذي ينبض كله كأنه يريد الخروج من غلافه. أغمضت عينيها. فتحت جفنيها قليلاً. إنها لا تزال واقفة في المكان نفسه. إنها حية. لم يتبدل أي شيء. وفكرت: لن أموت. ستأكل الثمرة ولا تموت. تجرأت، اقتربت من أكثر الأغصان انخفاضاً، تناولت الثمرة القاتمة، ناعمة الملمس. حملتها إلى فمها وقضمتها. انتشرت حلاوة ثمرة التين على لسانها، وسكب لبُّها الطري عسلاً بين أسنانها. وبدا لها الملمس أن مذاق البتلات البيضاء التي كانت تسقط من السماء هو مذاق مادة بلا قوام إذا ما قورن بعصارة الثمرة المحرمة النفاذة وأريجها. أحست بالرائحة تتغلغل فيها، وبلذة حبيبات الثمرة تنتشر كصدى في جسدها. فتحت عينيها قليلاً ورأت الحيّة في وضعها نفسه. وكذلك الحيوانات. كل شيء مازال على حاله. تناولت ثمرة أخرى بنهم. سال الرحيق على ذقنها. استسلمت لمشاعر الغبطة. رمت إلى الحيوانات ثمرة، ثم أخرى، وأخرى، متحدية وسعيدة. تزاحمت الحيوانات، واقتربت واحداً فواحداً ولعقت الرحيق من يدها. أرادت لهم أن يأكلوا جميعهم، أرادت أن تتقاسم معهم المذاق الجديد، الإحساس بأول إقدام على فعل ما يطلبه الجسد منها. فالأمر لم يقتصر على عدم موتها، بل صارت تشعر أنها أشد حيوية من أي وقت آخر. نظرت إلى طائر الفينيق يحوم فوق رأسها. نادته. لكن الطائر لم ينزل. حلق بعيداً. ابتعد مطلقاً نعيباً كئيباً.

عرف آدم ما حدث منذ أن سمع أصوات المرح من بعيد. تيبس جسده. عجّل الخطى. كان يخشى أن يظل وحيداً بلا رفيقة من جديد. خشي أن يصل ويجدها قد صُعقت بغضبٍ من إلوكيم. انطلق

يعدو. وبينما هو يركض كان خواء بارد يخرق خاصرته. لن يكون هو نفسه من دون المرأة، فكر. إذا ما اختفت، وهي عظم من عظمه ولحم من لحمه، سيهيم على وجهه ناقصاً ومغموماً. فهو يكاد يكون بلا ماضٍ، وماضيه القصير كله ممتلئ بها.

رأت حواء وصوله. ارتعشت وهي تراه يقترب راكضاً. نظرت إلى العرق يلمع على جلده، إلى ساقيه القويتين، إلى اندفاع قدميه، ونظرته المنذرة. قاطعت يديها صدرها وواجهته.

ـ لقد فعلتُها ـ قالت ـ فعلتها ولم أمت. أطعمتها للحيوانات ولم تمت. والآن، كُلّ أنت منها.

قدمت إليه ثمرة تين ناضجة. فكر الرجل في أنه لم يرها من قبل قطّ على هذا النحو. كانت تتضرع إليه أن يأكل. لم يشأ التفكير. إنها لحمه وعظمه. ليس له أن يتركها وحيدة. ولا يريد أن يبقى وحيداً. قضم الثمرة. أحس بالسائل الحلو يبلل لسانه، وبلبِّ الثمرة الناعم يتغلغل بين أسنانه. أغمض عينيه وخنقته لذة الإحساس.

عاد ينظر إليها. كانت تدير ظهرها. وكانت انحناءة خصرها الغائرة تُبرز تكور إليتيها الرائع. تساءل إن كان طعمها إذا ما قضمها بمثل حلاوة التين. مدّ يده ليلمس الاستدارة المتقنة مذهولاً من أنه لم ينتبه من قبل إلى نعومة بشرتها البديعة. سحب يده، لكن الإحساس ظل قوياً وواضحاً في أصابعه إلى حدّ سبب له هزة قوية. التفتت نحوه، فمد يده مجدداً ولمس انحناءة الصدر. كانت المرأة تنظر إليه بثبات. وكانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما.

سمعا فجأة صخب الحيوانات. رأيا قطيع الفيلة يلتف في حركة

دائرية، وكذلك الجواميس والنمور والأسود. سمعا ما لا حصر له من الأصوات الحلقية، من الزعيق والتأوهات غير المفهومة.

نظر آدم إلى حواء. وعرف أول اضطراب له.

تمنت حواء أن يتوقف عن النظر إليها، فقد بدا بعد قضم الثمرة كأنه يفكر في قضمها وأكلها هي. غطت صدرها.

- لا تنظر إليّ أكثر - قالت له -. لا تنظر إليَّ هكذا.

- لا أستطيع تجنب ذلك - قال - عيناي لا تنصاعان لي.

- سأغطي نفسي - قالت وهي تنزع أوراقاً من شجرة التين.

- وأنا - قال، وقد انتبه إلى أنها هي أيضاً لا تستطيع إبعاد بصرها عن ساقيه، عن يديه، كما لو أنها شيء مستجد.

بحثت حواء عن مخلوقة شجرة المعرفة. لم ترها في أي مكان. بدأت بمناداتها إلى أن رأتها فوق، قريباً من قمة الشجرة.

- ما الذي تفعلينه هناك؟

- أختبئ.

- لماذا؟

- ستعرفين قريباً. ستعرفين قريباً كل ما تودين معرفته.

5

الرجل يتقدم بخطوات واسعة. وحواء خلفه تغذ الخطى. يقول إنهما سيختبئان بانتظار ما سيأتي. كان مذعوراً. أما هي بالمقابل فكانت تنتظر أن تتبدى لها المعرفة. حاولت إقناعه بأن عليهما البحث عن الآخر وإطلاعه على ما فعلاه، والطلب منه أن يخبرهما بما يجب عليهما فعله الآن. كيف يميزان بين الخير والشر؟ وهل يكفي أكلهما الثمرة لتمكينهما من تمييز أحدهما عن الآخر؟ وإذا لم يتعرفا إليهما؟ ولاحظ أنني لم أفعل سوى الجزء الذي يخصني، كانت تتعلل، وعلى إلوكيم الآن أن يفعل ما يخصه، أن يعلمهما كل ما يمكن أن يصيرا إليه. غير أن آدم لم يشأ سماعها. وقال لها إنه جاراها في تناول الثمرة. وعليها هي الآن أن تتبعه. وتحت خطواته كانت تطقطق الأغصان وترتفع الطيور محلقة. كانت تنبعث من الأرض رائحة مطر. والجنة مازالت حية وسليمة. ضوء الأشجار يتسرب ذهبياً وسط النباتات المتسلقة والجذوع والأوراق. وكانت الحيوانات تحتفظ بالصمت. والرجل لا يكاد يتكلم. كانت هي تنظر إلى ظهره، إلى الخصر الذي تتدلى منه أوراق التين المثبتة بنبتة متسلقة. لقد أيقظت فيها ثمرة الرحيق الحلو رغبة غريبة، رغبة في أن تجوب جسد آدم بفمها. كانت تشعر بالهواء، بالأوراق، وتريد لمس كل شيء بيديها. ولم يكن هو يقول شيئاً، ولكنها تراه يتلمس الطريق، ويتوقف ليشم. نظر إليها كما لو أنه يريد الاحتكاك بها، التعرف إليها بعقل جسدٍ اكتشفه للتو.

لم يشأ آدم أن يخبر المرأة بما يشعر به. فهو لم يكن يجد بعد الطريقة لتفسير ذلك لنفسه. فكل ما يعرفه مذ قضم الثمرة أنه صار يفتقد التماسك. كانت حيوية جسده غير المعهودة تُفقده السكينة. بدأ يدرك ثقل عظامه، ومرونة عضلاته، ويجد التصميم الصائب لحركاته. صار يشعر بالأرض، بالتراب، برطوبة النباتات تحت قدميه. ولم يكن قادراً على تقرير ما إذا كان يفضّل هذا الوعي الجديد على الخفة المعهودة، وما إذا كان يفضل وجوده البطيء على التصميم ووضوح الهدف الذي يقوده الآن إلى مغارة بين الصخور، اكتشف وجودها في إحدى جولاته الاستطلاعية. كان يعرف ما يريده مثلما لم يعرفه من قبل قطّ، لكن الخوف يكبح فيض حيويته. الحقيقة أنه لم يمت. أيكون صحيحاً ما فكرت فيه حواء؟ أيشعر إلوكيم بالراحة حقاً؟

قاد حواء عبر أزهار الجريس القرمزية التي تتدلى فوق المدخل وتخفيه جزئياً. انسلت هي برشاقة وأطلقت صرخة إعجاب حين دخلت المغارة التي جدرانها من الكوارتز. جدران صخور وردية وبلورية تتلألأ مشعة بالنور الذي يدخل من ثقب في أعلى الفجوة الصخرية. ومن الأعماق كان يأتي خرير ماء متدفق. إنه مكان جميل، قالت وهي تدخل في العمق إلى الحد الذي يصله الضوء. سيكون من الصعب على الآخر العثور عليهما هنا، قال لها ذلك. فقالت: إذا كان يعرف كل شيء فسوف يجدنا. ولكننا بعيدان إلى حدّ ما عن الشجرتين والحيّة على الأقل. أؤكد لك أنه لن يُميتنا. لابد أنه كان يعرف ما الذي سيحدث منذ أن وضعنا هنا. ولو كانت النتائج محتمة ولا يمكن إصلاحها لما خلقنا. فسألها كيف يمكن لها أن تكون

متأكدة من أن الآخر، حين يرى أنه قد عُصي، لن يعيدهما إلى العدم الذي أخرجهما منه؟ الشيء الوحيد الذي كانت متأكدة منه هو أن الآخر ليس بهذه البساطة. تكفي رؤية صنيعه. تكفي رؤية كيف يبدل باستمرار كل ما يحيط بهما من نباتات وحيوانات. كما لو أن كل واحد من المخلوقات ليس سوى البداية لمخلوقات أخرى مختلفة وأشد تعقيداً. لقد سألتك يا آدم إن كنا سننجز انعكاساً لنا. أنا رأيتُ ذلك. رأيته في النهر. كثيرون مثلنا سيعمرون العالم، سيعيشون ويُنتجون خليقتهم، سيكونون معقدين ورائعين. رسم آدم ابتسامة وقال: أرجو ذلك. ترك جسده يتهاوى على الرمل الرمادي الناعم على أرضية المغارة ومدّ يده ليتناول يدها ويساعدها على الجلوس إلى جانبه. أحاط كتفيها بذراعه. واستكانت حواء عند زاوية صدره. لقد جلسا في مثل هذا الوضع مرات كثيرة، ينظران إلى النهر، إلى المرج، إلى المطر في الغابة، لكن الحاجة إلى وجودهما معاً، إلى تلامس بشرتيهما كان لها الآن زخم خاص. ألصقت حواء أنفها بصدره. شمته. ودس هو يده في شعرها، وشمها أيضاً.

ـ هذا غريب ـ قالت ـ أشعر برغبة في العودة لأن أكون داخل جسدك، وأن أعود إلى الضلع الذي تقول إنني خرجت منه. أرغب في أن يتلاشى الجلد الذي يفصل بيننا.

ابتسم وضمها بقوة أكبر إلى صدره. فهو يريد الشيء نفسه أيضاً، قال لها ذلك وهو يلمس كتفها بشفتيه. أريد أن آكلك مثل الثمرة المحرمة. ابتسمت حواء. تناولت يد آدم وراحت تُدخل الأصابع واحداً فواحداً في فمها، تضغط عليها، تمصها. وكانت الأصابع لا تزال محملة بطعم التين المحرم الملتصق بالجلد المالح. نظر إليها مفتوناً بفكرتها، وشاعراً في أصابعه بدفء فمها العذب والسائل مثل رخوية

مائية. أتمتلك حواء البحر في داخلها؟ وهل يمتلكه هو أيضاً؟ وإلا ما هي هذه الموجة التي شعر بها تتشكل فجأة في أسفل بطنه، صاعدة من الساقين لتنفجر في الصدر، وجعله يتأوه؟ أزاح اليد ذات الإحساس الذي لا يطاق، ودس رأسه في انحناءة عنق حواء. فرفعت رأسها وتنهدت. وحين فعلت ذلك ارتعشت رقبتها. رأى عينيها مغمضتين ومر بيديه برفق على نهديها مفتوناً بتماسكهما، وبلون وملمس الهالتين الورديتين الصغيرتين اللتين تصلبتا فجأة تحت يديه، مثلما حدث لجلد عضوه الذي فقد ترهله المعهود لينتصب مثل إصبع ضخم ويشير بوضوح لا لبس فيه إلى بطن المرأة. وبجسدها المتوتر، استسلمت هي لرغبتها في لحس آدم كله. وسرعان ما كانا، على أرضية المغارة، كرةً سيقان وأذرع وأيد وأفواه يطارد بعضها بعضاً وسط تأوهات وضحكات مكبوحة. وهكذا راحا يكتشفان بالتلمس ليتعرفا إلى نفسيهما وينبهرا دون تسرع بما يُظهره جسداهما فجأة من سوائل وانتصابات خفية غريبة، والمفعول المغناطيسي لاختلاط فميهما ولسانيهما كمجازات سرية يرتطم فيها بحر أحدهما بشاطئ الآخر. وعلى الرغم من طول تلامسهما، لم ترتو رغبتهما في الملامسة. كانا فورانين متأججين يغطيهما العرق عندما أحس آدم بدافع لا كابح له يدفعه إلى أن يغرس في جسد حواء الفرع الأفقي المنتصب الآن في منتصف بدنه، وعرفت هي، وقد تزودت بالمعرفة أخيراً، أنه عليها أن تفتح له الطريق إلى داخلها، حيث كان يشير ذلك الطرف الإضافي المفاجئ الذي ظهر فجأة بين ساقي آدم. وأخيراً، حين صار أحدهما داخل الآخر، وعرفا سحر العودة لأن يكونا جسداً واحداً. وعرفا أنهما لن يعرفا الوحدة أبداً طالما هما هكذا. وحتى لو افتقدا الكلمات وساد الصمت في ذهنيهما، فإنهما

قادران على أن يكونا معاً وأن يتكلما دون أن يقولا شيئاً. وظنا أن هذه هي المعرفة التي أخبرتهما الحيّة بأنهما سيمتلكانها إن أكلا ثمرة الشجرة. وبينما هما يهتزان، أحدهما قبالة الآخر، رجعا إلى العدم، ثم انبعث أخيراً جسداهما المترعان من جديد ليشيرا إلى بدء العالم والتاريخ.

6

نام آدم للمرة الثانية في حياته. ورأى في حلمه كرة هائلة مغطاة بأشواك منتصبة، وكانت تلك الأشواك أشجاراً عمودية سامقة. ومن كل شجرة يبرز خصرٌ وجذعٌ ورأس، إما لرجل أو امرأة. وكان كل واحد من تلك الكائنات التي نصفها شجر ونصفها بشر يمسك بذراعيه الممدودتين رجالاً ونساء آخرين يشكلون أغصان أشجار تلك الغابة الفسيحة المؤنسنة. كانت الأشجار تتهاوى مهشمة واحدة بعد الأخرى. تطقطق وتهوي مطلقة عويلاً طويلاً. وكان آدم يحلق فوق ذلك الحشد ذي النظرات الثابتة الذي يتأمله عاجزاً وأصواته ترن في قلبه حائرة من نهاية لا تتوصل إلى فهمها. وآدم يواصل التحليق، غير قادر على وقف ذلك الطيران في دوائر، وعاجز عن وقف فرقعة الأشجار التي تموت.

استيقظ مرتجفاً. نهض من جانب حواء. أيقظها. سمع في الخارج دوي الرياح المنتقمة والمعادية. كانت الأرض تختلج. ظن أنه الخفقان الخفيف الذي تبيّن به الأرض أنها حية، ولكن الزلزلة المعادية التي هزتهما كذّبت ظنه. بدا كما لو أن الأرض تريد التخلص منهما. نظرت إليه حواء مذعورة. وكما لو أن قبضة عملاقة تعتصر المغارة التي تعانقا فيها قبل قليل. فقد راحت تنفصل قطع من صخور الكوارتز الوردية والبلورية وتتفتت لدى سقوطها على الأرض. كانت الأحجار والأتربة تحاصرهما بعدوانية. عالم الكوارث والمذنبات

التائهة الذي كان دويه يتسرب إلى أمسياتهما بين حين وآخر، ينطلق فجأة تحت أقدامهما. آدم، آدم، أيكون السبب أننا أكلنا الثمرة؟ فصرخ هو: لقد رأيتُ ذريتنا كذلك. سيعيشون، ولكنهم بسبب خطيئتنا سيموتون، سيسقطون محطمين واحداً فواحداً، قال وهو يئن. حاول النهوض، المشي، دون أن يتمكن من التوازن على ساقيه. سقط مرة بعد أخرى. وكان مطر الأحجار متواصلاً، وجدران المغارة تتهشم. لفتهما سحابة من الغبار أجبرتهما على إغماض عيونهما. كانت حواء تغطي رأسها بذراعيها. حاولت المشي مثل آدم، ومثله كانت تسقط مع كل محاولة. الآن سنموت، فكرت. سيتحقق كل ما تنبأت به الحيّة. تمكن آدم من التقدم مسافة قصيرة على أربع. وطلب من حواء أن تفعل مثله وتتبعه. مثل حيوان، فكرت هي. وعلى أربع، مثل حيوان، لحقت به. لم تكن الأرض تتوقف عن الزمجرة، وعن الاهتزاز. سقط حجر على ساق آدم. صرخ متألماً، فاقتربت منه وتمكنت من رفع الحجر عنه. كانت ساق آدم تنزف. لم يكونا قد رأيا دماً من قبل. نظرا إلى الجرح. كان الأحمر المتوقد يسيل مثل مسيل صغير على الجلد. فلنخرج، قال آدم. عليهما أن يخرجا من هناك قبل أن تتهاوى جدران المغارة. وفكرت حواء: عيناي مفتوحتان جداً، إنهما تتأججان. إنني خائفة. خرجا من المغارة على أربع وزحفاً. كانت السماء في الخارج مظلمة، وكان يتساقط على الأرض غبار رمادي ناعم، مطر صلب يؤذي البشرة. وبصعوبة تمكنا من رؤية الفوضى والاضطراب في الجنة، والحيوانات التي تتراكض صارخة. كانا يسمعان طقطقة الأشجار وهي تُنتزع من جذورها، جلبة كارثة تحولهما فجأة إلى مخلوقين ضعيفين، منكسرين ومرعوبين. وعلى بعد أمتار قليلة منهما انفتحت الأرض منشقة بضربة غير مرئية.

أغمضت حواء عينيها وصرخت بأقوى صوت تستطيعه مفكرة في أن دوي صوتها قد يُخمد غضب الروح الغاضبة التي تسعى إلى تدمير كل شيء. ضغط آدم قبضتيه وطلب منها أن تصمت. إنها هي، فكر. إنها هي وفضولها. سحبها أبعد ما يستطيع عن الهاوية التي أحدثها الشق بجلبة تبعث على الصمم. كانت الأرض تتشطر بفظاظة ودوي كما لو أن صاعقة غير مرئية كلية القدرة تقطعها، تحفر فيها هاوية عريضة. لم تشأ حواء رؤية ما تراه: كانت **الجنة** تتحرك بعيداً عنهما، تتكرهما. رأتها تستقر في الجانب الآخر من الهاوية العميقة والعريضة حين توقفت الأرض عن الاهتزاز. رأتها تعود إلى هدوئها، إلى نورها الذهبي، كجزيرة غريبة على الأرض. **الجنة**، هتفت في دخيلتها، لم تفكر قط في أنهما سيفقدانها، لم تفكر قط في أنهما سيبقيان خارجاً، منفصلين، مستبعدين.

وفجأة أحسا بتماوج مائي، كما لو أن موجة تحت أرضية تهز الصخور التي كانت متينة وراسخة قبل قليل. وإلى جانبهما ظهرت، بغتة، مخلوقة طويلة وغريبة لها جسد اسطواني وجلد حرشفي، تزحف على الأرض. تعرفت حواء على وجهها، على عينيها.

ـ أهذه أنتِ؟

ــ لقد حوّلني إلى هذه الهيئة التي أنا عليها. ولكن غضبه سينجلي. فعندما يغضب يفعل أشياء ينساها في ما بعد. ولحسن الحظ أنه عندما يتذكرها يندم ويصلحها. ما فعله بي لن يدوم، أما أنتما فسيكون زمانكما طويلاً. لن تستطيعا العودة إلى الجنة.

ـ أنتِ المسؤولة ـ قال آدم متعرفاً عليها ـ لقد خدعتِنا. أقنعتِ المرأة وهي أقنعتني.

ـ لقد استخدمتما حريتكما ـ قالت الحيّة ـ. وهذا ما كان يتوجب حدوثه.

ـ وما الذي سنفعله الآن؟

ـ ستعيشان، ستموان، ستتكاثران، وتموتان. من أجل هذا خُلقتما، من أجل معرفة الخير والشر. ولو لم يشأ إلوكيم أن تأكلا الثمرة لما منحكما الحرية. غير أن تجرؤكما على تحديه يجرح كبرياءه. لكنه سيتجاوز ذلك. وقد طردكما الآن لخشيته أن تأكلا من شجرة الحياة فلا تموتان أبداً. يريد أن يمتلك عليكما سلطة الخلود.

ـ كان عليكِ أن تخبريني لآكل من ثمرة تلك الشجرة أيضاً، ونتجنب الموت بذلك ـ تنهدت حواء.

فرقعت الحيّة بلسانها. وكبحت حواء إيماءة اشمئزاز حين رأت لسانها مشطوراً إلى شطرين.

ـ إنك متطلبة ـ قالت ـ. ولكن عليك ألا تظني أن الخلود مجرد هدية. ستكون لكما حياة عابرة، لكنني أؤكد لكما أنكما لن تشعرا بالملل. ولأنكما لن تتمتعا بالحياة الأبدية سيكون عليكما أن تتكاثرا وتسعيا إلى البقاء، وهذا سيُبقيكما مشغولين. والآن، يجب أن أنصرف، عليّ أن أتجنبه قبل أن ينتزع مني مَلَكَة الكلام. لقد فعل ذلك أكثر من مرة. امضيا في ذلك الاتجاه. ستجدان كهفاً.

عادت الأرض تهتز وترتج. ولمعت في السماء أحزمة ضوء متوهجة ومدوية. وفي طرفة عين اختفت الحيّة في الأجمة رشيقة وزاحفة.

نظر آدم إلى المرأة. استند كل منهما إلى الآخر في محاولة الحفاظ على توازنهما. وبحثا مترنحين عن ملاذ في إحدى الأشجار.

تـشبثا بالجـذع كـيلا يـسقطا. كانـت عينـا حـواء مفتـوحتين علـى اتـساعهما تـتقلان هنـا وهنـاك، دون أن تتوقفـا عنـد شـيء محـدد. شـمّ الرجل رائحة خوفها، وعرف أول مرة انعدام اليقين، الخـوف مـن عدم معرفـة مـا عليـه عملـه، وإلى أيـن يـذهب. لـو أن الأرض تتوقـف عـن الاهتزاز على الأقل. احتضنها. وكانت هي أيضاً ترتعش مثله، منحنيـة على نفسها، ورأسـها مخبـأ بـين ركبتيهـا. وسمعتها تتوسـل إلى الأرض أن تهدأ.

7

عندما توقفت الأرض عن الاهتزاز وتمكنا من النهوض، أطلا على الهاوية التي تفصلهما عن الفردوس. الضياء الذي كان يتألق فوق رأسيهما استُبدل بسماء رمادية غريبة وباهتة، بظل بارد، ضارب إلى الصفرة، تطفو فيه سحب من غبار. نظرا إلى الصدع، وحاولا أن يجدا وسط الغبار الكثيف ممراً يرجعان عبره إلى **الجنة**، لكن الهوة العميقة كانت تحيط بها تماماً. جثا آدم على ركبتيه، وضع جبهته على حصى الحافة وضرب الأرض بقبضته وهو يطلق أنين غضب ويأس. نظرت إليه حواء بذهول. لم تجد تفسيراً للكارثة، ولا لرد فعل إلوكيم العنيف. أيكون سبب ذلك الغضب العظيم كله تجرؤهما على أكل الثمرة أم المعرفة التي اكتشفتها هي وآدم في المغارة؟ أيكون قد طردهما كيلا يرى ما سيخرج منهما، وما رأته هي في النهر؟ ربما يكون قد تألم لأنها هي وآدم، عندما خُيرا، قررا اختيار ما لا يعرفانه. لا شك أن **الجنة** كانت باهرة (أهي باهرة جداً!) وقد تولى هو أمر عدم افتقادهما أي شيء فيها.

ـ لم أفكر قط في أنه سيطردنا ـ قالت بصوت عالٍ.

ـ وما الذي فكرتِ فيه يا حواء؟ ما الذي فكرتِ فيه! ـ سأل آدم وهو يلتفت إليها مؤنباً.

ـ لقد أخبرتُك. هو من أراد لي أن آكل الثمرة. وهذا ما أشعرني به. يريد أن يعرف ما الذي سيجري لنا. لهذا السبب جعلنا أحراراً. هذا ما فكرتُ فيه.

ـ وفكرتِ في أن ذلك كله سيتم في الجنة؟

ـ ظننتُ أن الأرض كلها ستكون جنتنا.

نظر إليها آدم بمرارة.

ـ لقد أخطأتِ الظن ـ قال.

ـ مازلنا لا نعرف ما هو الموجود في الغيب يا آدم. ربما سنجد ما رأيته. فإلوكيم يعرف ما يفعله.

أبدى الرجل ابتسامة ساخرة. ما الذي يمكن انتظاره منها سوى الفضول؟ ويا لسعادتها إن كانت تردّ على هذا النحو على الحيرة والارتباك. أما هو بالمقابل، فكان يشعر بالشلل، وبأنه ممتلئ بالخوف والندم. ولم يكن يريد التحرك من هناك. وكان يتشبث باحتمال أن يتذكرهما إلوكيم ويسمح لهما بالرجوع.

ـ أنا أرى أنه يتوجب علينا الطلب من إلوكيم أن يصفح عنا، وأن نسجد له إلى أن يسمح لنا بالعودة.

أحست حواء بغم آدم في باطن قدميها، في راحتي كفيها، وفي سحابة ماء عكرة تجمعت في عينيها وبدأت تسيل على خديها. أحس هو بدفء المرأة في ظهره، وبرطوبة دموعها. نهض ببطء، وقبل أن ينتصب تماماً نظر مرة أخرى إلى الجنة. كانت تطفو بعيداً في فضاء واضح وغير واقعي. وينبعث من أغصان **شجرة الحياة** الملتفة والوارفة الضوء الذهبي والهادئ الذي أضاءهما حتى ذلك الحين. كان يتساءل إذا ما كانا سيتمكنان من البقاء، وإذا ما كان كل ما حدث ليس سوى حيلة من إلوكيم، ومجرد سراب لدفعهما إلى الشعور بالحنين. ابتعدت حواء عنه ومشت قريباً جداً من حافة الهاوية. وكلما كان الدخان الكثيف يتبدد متحللاً في الفضاء، كان محيط الفردوس يظهر بوضوح أكبر. صار بإمكانها رؤية الدروب

التي جابتها مرات كثيرة، والنباتات والأشجار التي تعرف أسماءها. وكانت تسمع صخب الأنهار التي تنسكب من أعلى الهاوية بعد أن صارت بلا مجرى. وعندئذ رجعت إلى جوار آدم.

ـ لا أظن أن إلوكيم يريد الاستماع إلينا الآن ـ قالت له وهي تداعب يده ـ فقد انتهى للتو من هزّ الأرض. لابد من الانتظار إلى أن ينقضي استياؤه. لماذا لا نذهب لنرى ما الذي هناك، حيث تغطس وتختفي السماء؟ انظر كيف أن الغبار ينقشع. هلم بنا يا آدم، وبعد ذلك سنفعل هذا الذي قلته.

تقبّل عرضها بانصياع. بدأا السير مخلفين الجنة وراءهما. ومن خلال فجوات الضياء المفتوحة في سُحب الغبار كان يُلمح سهل موحش من أرض ضاربة إلى الحمرة يغطيها عشب أصفر، وتتخللها هنا وهناك مجموعات من أشجار النخيل والأرز. رأيا في أحد جوانب المشهد، جبالاً شديدة الانحدار ذات صخور حادة تصعد من الأرض عالية وفظة. وعلى مسافة من المحال عليهما تحديدها يوجد تشكيل صخري. صفائح ضخمة من الحجر تبرز من السطح كأنها مبعدة من منطقة مظلمة. وتتعالى الصخور في ما وراءها في تلال إلى أن تشكل جبلاً غريباً ومتوحداً تظهر في أعلاه بقعة تغطيها نباتات متراصة ومتنوعة تتلوى في خضرتها حتى تنتهي عند أطراف السهل تحت أقدامهما. لم يبدُ المشهد جديداً، ولكنه أقرب إلى أن يكون منهوكاً، محطماً، موجوعاً. فاجأتهما ضخامة أبعاده وتعسف انتشار الصخور ونمو الأعشاب والنباتات وتوزعها بصورة مختلفة جداً عما هي عليه في الجنة. أيكون إلوكيم هو من رتب ذلك كله؟، تساءل آدم مستغرباً من أنه يوجد على مقربة من الجنة منظرٌ على هذا القدر من الكآبة والعدائية. وإلى جانبه، كانت حواء تحاول تهدئة

إحساسها بأنها قد تضاءلت وصغرت بصورة مفاجئة. أحست أنها ضئيلة وهشة. وشعرت بحرقة في عينيها وبحكة في أنفها.

ـ ما الذي يحدث هناك حيث تنتهي السماء يا آدم؟ هل توجد هناك هاوية أخرى؟

ـ إنه الأفق ـ قال لها ـ لاحظي كيف يتحرك مبتعداً كلما تقدمنا في مشينا.

نظرت حواء إلى الغيوم وفكرت: إلى أين تراها تذهب؟ ولم تكن قد سألت نفسها هذه السؤال من قبل، حين كانت ترى السحب تتدحرج فوق رأسها وهي مستلقية بجانب النهر في الجنة.

ودون أن يتفقا مسبقاً، توجه كلاهما نحو البقعة الخضراء حيث تتشابك أشجار الصنوبر. كانت حواء تتوقف هنا وهناك. التقطت أحجاراً عن الأرض، ونبتات عشبية صغيرة. كانت تشمها. فكرت في شجرة الحياة وفي شجرة المعرفة المتشابهتين جداً والمتعارضتين في آن واحد. للأرض خارج الحديقة ملامح وروائح أيضاً تذكرها بفردوسها، ومع ذلك، بدا لها أن لكل شيء في هذه الأمكنة إمكانية التناوب بين إحداث ألم كالذي تُحدثه الأحجار بباطن قدميها وهي تمشي، أو إظهار حدّته وصلابته بكل بساطة عندما تنحني وتلتقطه وتتأمله على راحة يدها.

أيتواجد الخير والشر في كل ما يحيط بها؟ تساءلت. وقفزت مذعورة حين مدّت يدها لتلمس زهرة برية زرقاء بديعة. إن لها أشواكاً! لم تتخيل قط أنه يمكن لزهرة أن تجرح.

كان آدم يرى حواء تتفادى أحجار الطريق. وقد كانت الأحجار تدخل في قدميه وتضطره إلى القفز لتجنب الوخز الذي يصعد، دون أن يدري كيف، عبر ساقيه حتى صدره. والجسد نفسه الذي كان

يمده قبل قليل بالمتعة، لم يعد يتوقف، منذ ابتعادهما عن الجنة، عن التسبب له بأحاسيس لا يتمكن من فهمها أو إلغائها. فالغبار الذي يطفو في الجو يحرق حنجرته، والضوء الرمادي يصفع لحمه ويُثقل عليه مسبباً له الاختناق ويغطي جلده بماء مالح. كلمات جديدة، ألم، عرق، كانت تنبثق من وعيه وتسمي تلك المضايقات المحيرة.

وحين كانت حواء تبتعد عنه لتتلمس أشجاراً غير معروفة، وأعشاباً وأزهاراً صغيرة، لم يكن يتوقف عن النظر إلى الخلف، والحنين إلى الجنة والتساؤل بغم إن إلوكيم سيتجاوز فورة غضب طردهما وتركهما مهجورين ووحيدين في ذلك المشهد الفسيح والموحش.

وفي منتصف الطريق، رأى آدم صقراً. يحلق بعيداً في دوائر. فتذكر الحيوانات، وكان قد نسيها. أين هي؟ ما الذي جرى لها؟

كانت السماء البيضاء الكثيفة تُثقل على ظهره. تساءل إذا كان ذلك الضوء الشاحب سيظل ثابتاً مثلما كان من قبل ضياء الجنة الذهبي الدافئ. كان الإحساس بجلده المغطى بالعرق، والحر الذي يشعل جسده، يجبره على المشي ببطء. كانت حواء تتعرق أيضاً. وكان بريق جسدها المبلل يجتذب آدم. فيقترب منها ويمر بيده على ظهرها، على ذراعيها. لاحظ الاحمرار الذي اكتسبته وتساءل إذا ما كان لون التراب ينعكس عليها. وعلى الرغم من أنهما لم يتوقفا عن المشي، فإنهما يكادان لا يقتربان من الخضرة البعيدة. كانت حواء تصغي إلى الريح. من أين تراها تأتي؟ إنها مثل إلوكيم، غير مرئية ولكنها موجودة. بدا لها أنها تسمع ضحكات. وفكرت في ما سيكون عليه الآخرون الذين ستراهم. فهي لم تكن قادرة على تصور أنهما وحيدان في تلك الاتساعات الشاسعة. لقد رأت كثيرين في مياه النهر. وعادت تسمع الضحك. توقفت. أومأت لآدم كي يظل ساكناً.

ـ أتسمع هذا؟ هناك من يضحك.

ـ إنها الحيّة. لا بد أنها في هذه الأنحاء.

رفع الرجل نظره. كانا قريبين جداً من تكوينات صخرية غريبة الشكل تبرز من الأرض كأعمدة يتشكل كل واحد منها من صخرة واحدة تكشف جوانبها عن أشرطة تتدرج من الوردي الشاحب إلى البرتقالي. سُمع الضحك بوضوح أكبر. لم تكن له رنة ضحك الحيّة. ركض آدم نحو الصخور التي يأتي الصوت منها. لحقت به حواء. رأياها تبرز في أعلى إحدى الصخور. إنها ضباع. ستة ضباع أو سبعة. ابتسم الرجل. تذكر ذلك الاسم في ذهنه، وتشكل على شفتيه. وربط أول مرة بين صوت الضباع وضحكه. ناداها. كانت الحيوانات تدنو منه كلما دعاها. غير أن الضباع لم تستجب لندائه الآن. كانت تشم الهواء. وكان صوت ضحكاتها يلعلع في زمجرات حلقية مبحوحة. كانت تراقبهما وتتحرك بقلق. رأت حواء أحدها ينحدر نازلاً. ودون أن تدري السبب أحست ببرودة في ظهرها.

ـ إنها لم تتعرف علينا ـ قالت بحذر وبصدر مثقل ـ. لا تعاود مناداتها. فلنغادر المكان.

نظر إليها آدم باستغراب. استبعد قلقها بإيماءة تؤكد سيادته على الحيوانات. واستدعى الضباع من جديد.

تراجعت حواء مذعورة. ونزل ضبعان عن الصخرة الشاهقة بينما ظلت بقية الضباع تجول في الأعلى كما لو أنها لا تفلح في معرفة ما عليها عمله، كانت قلقة، تطلق أصواتاً غريبة ومزعجة.

لم يعبأ آدم بتحذيرات المرأة، وراح يقترب. وعندما صار على مسافة خطوات قليلة مدّ يده ليلمسهما، مثلما اعتاد أن يفعل مع أي حيوان في الجنة. وأدرك عندئذ فقط مدى تبدل ما كانت عليه الحال

من قبل. فقد استجمع أجرأ الضبعين قواه واندفع قافزاً نحو آدم موجهاً إليه ضربة مخلب مزقت يده. كانت تلك إشارة كي تنزل الضباع الأخرى بأقصى سرعة عن الصخور. صرخت حواء بأعلى صوت تستطيعه، وانحنت، تناولت حجراً كبيراً عن الأرض وقذفته بكل قوتها نحو قطيع الحيوانات. فتوقفت الضباع وقد أرعبتها الصرخة، وفاجأها رمي الأحجار.

حذا آدم حذو حواء وبدأ يرميها بالأحجار أيضاً، وكان يتراجع هائجاً في الوقت نفسه.

وبذهول مما حدث، بدأ الرجل والمرأة، تدفعهما الغريزة، الركض بأقصى سرعة باتجاه الجنة، ضحية غمّ بلبل صدريهما.

وقبل قليل من وصولهما لاهثين، بوجهين شاحبين ومتعرقين، أمسك آدم حواء من كتفيها.

ـ فلنطلب الصفح يا حواء. فلنسجد ونتوسل إلى إلوكيم أن يسمح لنا بالرجوع. وعليكِ أن تعاهديني بألا تعودي أبداً إلى أكل الثمرة المحرمة.

ـ لن أعود إلى فعل ذلك أبداً ـ قالت موافقة ومستعدة لأي شيء لتفادي نظرات الرجل المضطربة والخوف الذي يهز ساقيها.

ـ نحن لم نعرف بعد كل ما يعرفه إلوكيم. وليس هناك ما يؤنبنا عليه. فنحن لم نتغير.

نظرت إليه حواء. ولم تشأ أن تقول له إنه لم يبق فيه شيء من البريق الذي كان يشع منه قبلاً، وأنه آخذ بالتضاؤل بصورة ظاهرة للعيان. لم تشأ التفكير في الصوت المتهدج الذي صار الهواء يدخل به إلى رئتيها. كان ثقل الخوف، والجري الهائج هرباً من الضباع، يصعبان تنفسها. وآدم على حق. فمن الأفضل العودة، والتوسل والتذلل.

سجدا عند حافة الهوة العميقة التي انشقت وقد صار الهواء فيها صافياً الآن، يسمح بأن يُرى في أعماقها ركام صخور حادة ومصقولة. ورأيا في الجانب الآخر قمة شجرة الحياة البديعة. استنشق آدم الهواء بشراهة. وفكر في لو أنه يستطيع القفز ليصل إلى الجنة لما عاود الخروج من هناك أبداً. وبينما هو جاثٍ إلى جانب حواء، وفمه يلامس رمال الأرض، أعلن ندمه وتوبته بأعلى صوت، هاتفاً بكل الحسرات والتضرعات التي استطاع تسميتها. وحذت حواء حذوه خجلة ومتضايقة، رافعة صوتها إلى حدّ أحست معه بأن حرقتها كلها تُستنفد في ذلك التوسل.

اندفعت هَبَّة ريح قوية مفاجئة من أعماق الهاوية ولفتهما مشعثة شعرهما، وجردتهما من الأوراق التي سترا بها عريهما. وأمام عيونهما صارت الريح مرئية، تحولت إلى مادة مشتعلة وحادة، إلى سيف لهب ضخم، أحمر وبرتقالي يطول ويقصر، يفرقع عند أقدامهما، أشد حرارة ورهبة من الحر الذي عرفاه. انقض لسان النار عليهما دون رحمة، يلعق باطن أقدامهما وراحات أيديهما، يحرق شعرهما، يجلدهما. تمكنا من النهوض، وشرعا بالركض متراجعين. لحقت بهما النار دون توقف، تدفعهما بلا شفقة عبر السهل وتقودهما نحو الجبل الذي يبرز وسط التكوينات الصخرية. وبينما هما يضعان أذرعهما على رأسيهما ليحتميا كيفما يستطيعان، وأقدامهما تتسلخ، وصل آدم وحواء إلى السفح وصعدا بمشقة تلاحقهما النار عن قرب. ووسط أجمة نباتات شوكية، لمحا فوهة مغارة. وفور ظهور مدخل الكهف لهما، انطفأ لهب النار فجأة بفرقعة صماء. فأدركا أنهما قد وصلا إلى ما سيكون مسكنهما في ذلك المشهد المعادي الذي نُفيا

إليه. لاذ كلٌ منهما في خوفه المفاجئ إلى ذراعي الآخر، يهزهما البكاء الذي لا يستطيعان كبحه.

- هذا عرض مذهل للقوة، كما عملية الخلق تقريباً - قالت الحيّة وهي تظهر إلى جانبهما على إحدى الصخور -. وكل هذا لأنكما أكلتما ثمراً وحسب.

- لماذا لم أفكر في الأكل من ثمرة الحياة؟ لماذا لم تطلبي مني فعل ذلك؟ لماذا؟ لماذا؟ - قالت حواء وهي تنتحب.

- إنكِ واهمة إذا كنت تظنين أن إلوكيم كان سيسمح بذلك. فالحرية التي منحكما إياها لها حدود.

- لقد هاجمتنا الضباع اليوم - قال آدم -. ما الذي سيحدث عندما تفعل ذلك الحيوانات الأخرى؟

- عليكما أن تتعلما التمييز بين أيها يمكنكما الثقة به وأيها لا يمكن الوثوق إليه. فالحيوانات ستبدأ الشعور بالجوع.

- وما هو هذا؟ - قالت حواء.

- الجوع والعطش. ستعرفان ذلك. وستعرفان أيضاً ما تفعلان. ستدركان شيئاً فشيئاً كل ما تعرفانه. كل ما هو في داخلكما. وما عليكما إلا العثور عليه. أدخلا إلى كهفكما. استريحا. لقد مررتما بنهار عصيب.

- نهار؟

- نهار وليل. مواقيت مرتبطة بدوران الكواكب. استريحي يا حواء. ودعك من توجيه الأسئلة.

8

كانت المغارة فسيحة. صخور مسطحة غير منتظمة تبرز من جدرانها، وفي وسطها فراغ مغطى برمل ناعم قاتم. وترتفع الجوانب مقوسة إلى أن تتغلق بنوع من القبة المثقوبة في أعلاها بفتحة يدخل منها الضوء. أحسا بالراحة في داخلها بعد حرارة النار ووهج النهار.

تهاوت حواء على صخرة ملساء. نظر آدم إلى ظهر المرأة. إلى ساقيها الطويلتين وقدميها المضمومتين إلى الخلف. بدت مثل بتلة زهرة. وعلى الرغم من النبوءة بأنهما سيموتان يوم يأكلان ثمر الشجرة، فإنه مازال يشعر بأنه مجسد وحي بقوة مثلما كان فور تناوله الثمرة. وكان الخوف من عقاب آخر قاس وغير متوقع هو ما يمنعه من العودة إلى الدخول في المرأة والانتظار فيها حتى يهدأ الغمّ الذي يضايقه. بدأت حواء التوسل إليه أن يبيّن لها كيفية التمييز بين الحياة والموت. ولشدة تزاحم الأحاسيس بعضها مع بعض، كانت المشاعر الجديدة والمؤلمة تكاد لا تتيح لها القدرة على التفكير.

ـ لم أشعر قط بمثل هذا الألم في قدميّ، وفي جلدي. فمي ممتلئ بالتراب، وحنجرتي متوقدة. ألا تظن أن هذا هو الموت؟ ـ تأوهت حواء بأسى.

ـ الموت هو عكس الحياة ـ قال لها ـ. وأنت تشعرين بهذا كله لأنك حية. وهذا ما تريدينه يا حواء، أليس كذلك؟ ـ سمع نفسه يقول على الرغم منه بينما هو يقترب ليجلس إلى جانبها ـ تريدين المعرفة.

هذه هي المعرفة: الخير والشر، اللذة والألم، إلوكيم والحيّة. لكل صورة نقيضها.

أعرفُ إنني حي من خلالها، فكر. وعلى الرغم من أن جسديهما ما عادا يشعان نوراً، وعلى الرغم من تضاؤل حجميهما، ومن أن الذيل الدقيق الذي كان يخفي من قبل ثقوبهما قد اختفى، إلا أن الإحساس بالرغبة في لمسها كان يحول دون خلطه بين الموت وغم الخذلان العميق. استمعت إليه حواء. وفي كل مرة تمسح فيها عينيها كانت العينان تمتلئان بالماء من جديد. لم تكن قادرة على العودة إلى السكينة، إلى إسكات يديها، قدميها، فمها. كان الألم يندس في كلماتها. الخدوش، الجروح، الحروق. ربما كان جسم آدم أكثر خشونة. أو ربما لا يدخل الألم إليه ناقلاً عدوى الأسى إلى تفكيره. كانت تشعر أن جراح جلدها تنقل ألمها إلى الخواء المفتوح في منتصفها، هوة مثل تلك التي تفصلهما عن الجنة. قسوة إلوكيم وما يحدث لهما كان يعتصرها دون توقف، مخلفاً إياها بلا حماسة، بلا طاقة ولا قدرة على فهم استحقاق ما فعلاه العقاب بألسنة اللهب التي أوصلتهما إلى هناك.

ـ إنني عطشى ـ قالت ـ عطشٌ يسمى هذا الذي خلّف فمينا جافين. ساعدني في البحث عن ماء. الماء يُذهب العطش.

لم تكن تكاد تقوى على الكلام. كانت تشعر بحرقة لا تطاق في حنجرتها، بجفاف شديد بين أسنانها.

جال آدم في المغارة. كان قد سمع لدى دخولهما خرير ماء ضعيف. وفي أقصى عمقها وجد ينبوعاً خفيفاً يسيل من أحد الجدران وينساب في مجرى ضيق ليصب في تجويف عميق في إحدى

الصخور. تناوبا على إدخال رأسيهما، وجهيهما، فتح شفاههما وتمكين أسنانهما من أن تُنظف من الرمل. خفف الماء من جفاف فميهما. ملأا خديهما، لكنهما لم يجرؤا على ابتلاعه. كان بارداً ومخالفاً تماماً للنار، ولكنه يحرق مثلها. بصقاه في آن واحد. خشيا أن يمزق صدريهما.

وعلى إحدى الصخور وجدا قطعاً طويلة من مادة غريبة ينمو عليها وبر، كما على متن الخراف. غطيا نفسيهما بها، مثبتين تلك القطع على خصريهما. كان الوبر ناعماً ولامعاً. وببطء داخلهما الدفء. استلقيا على الصخور. ورآها تغمض عينيها. تمدد إلى جانبها، احتضنها وأغمض عينيه أيضاً.

استيقظت حواء. لم تشأ الاستيقاظ بالكامل لأنها حلمت بالعودة إلى الحديقة ولم يكن وعيها يميز بوضوح بعد بين الحقيقة والخيال، ولكنها فتحت عينيها قليلاً، يدفعها الفضول لمعرفة إن كانت الأمور الرهيبة التي تتذكرها قد حدثت فعلاً أم لا. لم تر شيئاً. ففتحتهما أكثر قدر ما تستطيع، ولم تتمكن من الرؤية كذلك. فكرت في الغربان. كان لون أجنحتها يغطي كل شيء. مدّت يديها لتلمس الظلمة الكثيفة. جلست فجأة. كانت يداها تغوصان في الفضاء الأسود المظلم. وعيناها لا تنفعانها في شيء. لمست وجهها لتتأكد من أنها مستيقظة. حركت يديها فريسة الرعب.

ـ آدم! آدم! آدم!!!! ـ صرخت.

أحست أنه يتحرك، يستيقظ، يهمهم. ثم ساد صمت تلته صرخة.

ـ أين أنت يا حواء؟ أين أنت؟

ـ ألا تستطيع رؤيتي؟

ـ لا، لا أرى شيئاً. السواد وحسب.

ـ أظن أننا ميتين ـ تأوهت المرأة ـ وإلا ما الذي يمكن أن يكونه هذا؟

تلمس بالقرب منها إلى أن أحس بها. لمس أصابعها الباردة. لم يكن قادراً على فهم اختفائها، عدم قدرته على رؤيتها. وخرجت حبة بَرَدٍ من صدره.

ـ لا أحب الموت يا حواء. أخرجيني من هنا.

وفي أعماقهما، كما في أزمنة الفردوس الأولى، سمعا **الصوت**. كانت نبرته تتأرجح بين السخرية والعذوبة.

ـ إنه الليل ـ قال **الصوت** ـ جعلته لتستريحا، لأنه عليكما العمل الآن من أجل البقاء. في الليل تنامان. تفقدان الإرادة. وهكذا يمكنكما دخول وعيكما. تتعرفان إليه وتنسيانه في آن واحد.

أحست حواء أن **الصوت** مفتوح لها. لم تخف.

ـ إنك قاسٍ ـ قالت.

ـ لقد عصيتِ.

ـ لا تقل لي إنك لم تخطط لذلك. لم تخلقنا خالدين. وكنت تعرف جيداً مثلما أعرف أن هذا سيحدث.

ـ صحيح. ولكن ذلك كان التحدي. ألا أتدخل. أن أترككما حرين.

ـ وتعاقبنا.

ـ الوقت مبكر جداً لمثل هذا الحكم. أقر بأنني كنت أعلم منذ الأزل ما سيحدث. ولكن الأمور يجب أن تكون هكذا.

ـ أعد إليّ الضوء.

ـ اذهبي مع آدم بعد قليل إلى مدخل المغارة. الضوء سيكون هناك. يوماً فيوماً. فمنذ الآن أنتما موجودان في الزمان.

ـ لسنا ميتين على الأقل ـ قالت حواء عندما انطفأ الصوت.

عند الفجر، لاحظ آدم أن الظلال ترتفع منقشعة مثل الضباب. كانت حواء نائمة. أتراها تتأمل وعيها؟ أي مكان هو هذا الذي نصل إليه عند النوم؟ أتفهم هي ما هو غير مفهوم له؟ لم ترق له رؤيتها نائمة، ولم يرق له أن تنام. لا تروقه عندما تغمض عينيها ولا يعود ذهنها له. ومع ذلك، كانت هناك راحة في الاستسلام للخمود الغريب في عتمة المغارة، في الاستجابة لنداء الجسد بالبقاء ساكناً وعدم الشعور بالأسى والحنين، بالخوف والقلق. وفجأة عاوده الاضطراب. هل أنجز إلوكيم وعده بإعادة الضوء إليهما؟

اقترب من مدخل الكهف وما رآه سبب له رعباً لم يستطع معه كبح صرخة قوية. فسماء اليوم الفائت الضاربة إلى البياض تتوقد من أقصاها إلى أقصاها، حتى الغيوم نفسها مشتعلة. استدعى حواء. وجاءت هي مسرعة. نظرت إلى السماء الحمراء. مرت بجانبه وخرجت من المغارة، مدّت ذراعيها نحو الفضاء الدافئ. ورأت في السماء قرص الشمس الأحمر بعيداً في الأفق.

ـ السماء تحترق، ولكن النار لا تصل إلى إحراق الأرض ـ قالت.

اقترب آدم. كانت عيناه ممتلئتين بالدموع.

التصقت حواء بصدره. وهو الذي كان أطول قامة منها، أسند رأسه إلى رأسها وأجهش في البكاء. كان يتساءل ماذا سيفعلان. وكيف يمكن لهما العيش خارج الحديقة الآن وقد صار جسداهما يؤلمانهما ويشعران بالظمأ.

ـ ما الذي فعلناه يا حواء؟ ما الذي فعلناه؟ ماذا تفيدنا المعرفة في وسط هذا الخراب؟ انظري إلى الامتدادات الشاسعة المحيطة بنا. ما الذي سنفعله؟ أين سنذهب؟

لم تدر بم تجيب. فلا شيء مثلما كانت قد تخيلته. شدت ذراعيها حول آدم. فهي لا تريد رؤيته يتألم. كانت أصداء ألمه تتردد في أعماقها وتهز عظامها. رغبت في أن تغطيه بجلدها، في تكثير يديها كي تداعبه. فالجزع الذي كان الرجل يستثيره فيها غادرها. وفي مكانه لمحت داخلها رغبة في مواساته وحبه، رغبة قوية كما الريح، عذبة ومزغردة كما ماء النهر. تساءلت إن كان يدرك ذلك من خلال شعره، وإن كان يشمه، وإن كانت معرفته بأنها مترعة بالحنان تجاهه تُهَدّئ من غمه.

ـ فلنجرب الموت يا حواء ـ قال آدم وهو يرفع رأسه فجأة ـ ربما نستطيع العودة إلى الجنة إذا ما متنا.

ـ منذ قليل قلت إنك لا تحب الموت.

ـ ظننت عندها أن الليل هو الموت. فالموت يخيفنا لأننا لا نعرف ما هو.

ـ وماذا سنفعل كي نموت؟ لن يكون ذلك سهلاً ـ قالت حواء حائرة.

ـ لدي فكرة. فلنصعد إلى هذا الجبل ـ قال مستعيداً السيطرة على نفسه ومتحمساً لتصميمه.

بدأ السير صعوداً على الجبل. ولحقت هي به، متخلفة. لم تكن تدري ما هو الموت. لقد قالت الحيّة إن الموت هو عدم الإحساس بأي شيء، ولكنها لم تقدم أي تفسير عما سيحدث بعد الموت. ربما يستحق الأمر عناء التجربة. ستكون الطريقة المثلى للخروج من

الشكوك وتحري إن كان الموت مخيفاً إلى هذا الحد. فمعرفة ذلك أفضل من تحمل قلق الجهل به.

كان الجبل يتعاظم فوق الكهف. صخور ضخمة تنتصب هنا وهناك، وبينها أرض رميلة تتخللها شجيرات شوكية. وكلما صعدا كان ثقل جسديهما يزداد. وكانا يشعران بتوقد في أقدامهما، وفي راحات أيديهما التي يستندان بها إلى الصخور. وكان لون السماء قد تبدل. فهي زرقاء الآن. وبلا غيوم. والحريق قد انطفأ، وقرص الشمس يُشع بنور أبيض قوي، من المحال النظر إليه. وعادا إلى الشعور بالوهج الحارق يصفع جلديهما. كانت قدما حواء تنزفان. لم أعد قادرة على تحمل المزيد، قالت، تابع أنت وحدك. لكن آدم حملها على ظهره وواصل المسير لاهثاً، متعرقاً، مستنفداً. لم يكن قادراً على فهم الإنهاك، ومدى المشقة التي يتكبدها في فعل ما لم يكن يكلفه أي جهد من قبل. كانت حواء تئن، تنوح. وكانت تأوهاتها تتغلغل في أنفه، في عينيه، في أذنيه، وتمزقه من الداخل. وبصمت، لعن إلوكيم في سره. بلغا القمة أخيراً. رأيا الأرض الشاسعة، والبراكين المدخنة، وجزيرة الفردوس، والأنهار التي تجري حتى البحر.

صمتت حواء. ومع أن المنظر مختلف عن الفردوس، إلا أنه بدا لها جميلاً. بدا جميلاً لها بطريقة غريبة.

- إذا متنا لن نرى هذا كله - قالت.

- لقد رافقتك في أكل الثمرة - قال آدم - فرافقيني أنتِ الآن.

وبعد لحظة قصيرة من التردد والأسى، ألقى آدم بنفسه إلى الفراغ من فوق الجبل. وألقت المرأة بنفسها وراءه.

سقطا بتسارع، وكان الهواء يصفر في آذانهما، فأغمضت حواء عينيها، وضغطت شفتيها.

تمكـن آدم مـن رؤيـة تـراب الأرض الـضارب إلى الحمـرة يـرتج متحـولاً إلى نفـق هـوائي، يـدور بـصورة دواريـة، أحـاط بهمـا مُوقفـاً سقوطهما ونقلهما في الهواء إلى أن أوصلهما إلى تيار مائي.

ومرة أخرى تكلم الصوت داخلهما.

ـ ليس الآن موعد الموت ـ قال لهما ـ. ستعرفان الموت في حينه. وعندما يأتيكما ستتمنيان أن يتأخر قليلاً.

9

خرجا من الماء وهما يضربان بأذرعهما مرتجفين. عرفا خضرة أشجار النخيل والأرز والصنوبر، وضفاف النهر التي يريانها في البعيد. إنه المكان الذي قادهما إليه إلوكيم. وعلى العشب وجدا جلوداً متيبسة أخرى يرتديانها. كانت الشمس تلمع عالية في السماء. استلقيا على الضفة، دون أن يتكلما، مضطربين، منهوكين ومستفيدين من العبرة. والدفء الذي راح يلف جسديهما شيئاً فشيئاً أخمد القشعريرة التي خلفها فيهما دوار السقوط ورعبه.

ـ لقد شعرتُ بخوف شديد ـ قالت حواء ـ لا تطلب مني الموت ثانية.

هز آدم رأسه موافقاً. كان قد ابتلع جرعات من الماء. وكان ذلك السائل الشفاف طيباً، يُبَرّد الحلق والفم. انتظر بحذر لبعض الوقت كي يتأكد من أن شيئاً سيئاً لن يحدث له ثم دعا حواء إلى شربه.

ـ اشربي يا حواء، اشربي. لن يصيبك شيء. له مذاق جيد ـ قال وهو يمسك يدها ويجعلها تنحني فوق صخرة لتتناول الماء بصحن كفها وترفعه إلى شفتيها.

شربت حواء. رشفت السائل بتلذذ، ومصت أصابعها حتى آخر قطرة منه، وكررت ذلك مرة بعد أخرى. ابتسم آدم. أعجب بأنها لا تفعل أنصاف أشياء. وأنها تثق به وتتحداه. كانت ملامح وجهها مستمتعة بصورة مؤكدة.

ـ انظري كيف نجاكما عندما قررتما الموت! من يمكنه أن يفهم إلوكيم! لقد قلتُ لكما إنه متناقض. يفعل شيئاً ثم يندم بعد ذلك. من المؤكد أن الفضول ينهشه لرؤية ما الذي ستفعلانه بالحرية التي اخترتماها.

رفعا بصرهما. كانت الأفعى تتكلم ملتفة على فرع شجرة ينحني من جذعها فوق الماء.

ـ أنتِ مرة أخرى ـ قال آدم.

ـ لقد ظللتُ وحيدة أيضاً. وقد ضجرت.

ـ لو أننا متنا، هل كنا سنرجع إلى الفردوس؟ ـ سألتها حواء ـ. أمن أجل هذا أنقذنا، من أجل أن يحول دون عودتنا؟

ـ لا رجوع من الموت. ومن الخير ألا تعودا إلى محاولة ذلك. لقد عشتما قليلاً جداً. والحياة تقربكما من الفردوس.

ـ أخبرينا كيف ـ قال آدم.

ـ لا أستطيع مساعدتكما. إلوكيم لم يعد يطلعني على الأسرار. إنني وحيدة.

ـ ولكنك تعرفين الكثير.

ـ المعرفة ليست الحل لكل شيء. ولسوف تكتشفان ذلك. إنني ذاهبة. تتعبني الإجابة على كل هذا القدر من الأسئلة.

وبرشاقة انسلت على أغصان الشجرة واختفت.

تمددت المرأة على العشب مفكرة. واستلقى آدم إلى جانبها. ظلا صامتَيْن لوقت طويل، ينظران إلى السماء المحدبة والزرقاء من خلال أغصان الشجر.

ـ إنني أتساءل إذا ما كانت الحيّة هي حواء إلوكيم ـ قالت المرأة

ـ فعندما تبادلنا الحديث في الجنة قالت لي إنها رأته يصنع كوناً بعد كون ثم ينساها. إنهما يعرفان أحدهما الآخر منذ زمن بعيد.

ـ ربما كانت هي فيه مثلما كنتِ أنت فيَ.

ـ ولماذا تظن أن إلوكيم قد فصل بيننا؟

ـ فكر في أنه يمكن لنا أن نوجد كجسد واحد، ولكن الأمر لم يستقم. فقد جعلكِ في داخلي عميقاً. ولم يكن بمقدورك الرؤية ولا السماع. ولهذا قرر فصل أحدنا عن الآخر، إخراجكِ من داخلي. ولهذا نشعر بأننا على ما يرام عندما نعود كلانا لنصير واحداً.

ـ ولكنك تظن إني مذنبة ومسؤولة عن كل ما جرى لنا لأني أعطيتك ثمرة شجرة المعرفة لتأكلها. كان يمكن لك أن ترفض أكلها.

ـ صحيح. ولكنك بعد أن أكلتِها أنتِ، لم يعد بإمكاني فعل شيء آخر. ظننتُ أن وجودك سينتهي. ولم أشأ البقاء وحيداً. ولو لم آكل الثمرة، وطردك الآخر من الجنة، لكنتُ خرجتُ أنا أيضاً لأبحث عنكِ.

ـ امتلأت عينا حواء بالماء.

ـ لم يخامرني الشك في أنك ستأكل معي ـ قالت.

ـ وفي ذلك اليوم رأيتكِ مثلما لم أعرفك من قبل. كانت بشرتك شديدة النعومة والبريق. ونظرتِ أنت إليّ كما لو تذكرت فجأة المكان الدقيق حيث كنتِ توجدين في داخلي قبل أن يفصل الآخر أحدنا عن الآخر.

ـ ساقاكَ أذهلتاني. وكذلك صدرك العريض. وقد رغبتُ حقاً في أن أكون هناك في داخله مرة أخرى. ورأيتك في أحلامي. كان لك جسد شجرة. وكنتَ تحميني كيلا تحرقني الشمس.

ودون أن يتفقا مسبقا، نهضا وتوغلا مجدداً في الماء للانتعاش.

ـ الفرات ـ قال آدم ـ هكذا يسمى هذا النهر.

طَفَوَا مع التيار مستسلمين لتأثير الماء البلوري. وفهما دون صعوبة سعادة الأسماك التي كثيراً ما أُعجبا بألوانها. فتح آدم عينيه ورشف ببطء السائل البارد. فكر في مذاق الثمرة المحرمة وبحث عن حواء. عاودا تبادل القبلات والدخول أحدهما في الآخر مفتونين بتجربة خفة وطفو جسديهما الغريبة. ظلا ساكنين لوقت طويل، متعانقين بقوة، وكل منهما يحاول استعادة الذاكرة المفقودة حين كانا مخلوقاً واحداً، وبلوغ الصور التي يحفظها كل واحد في داخله ويسكب فيها نهر صوره الخاصة. جابا دون طائل سراديب ذهنيهما الواهية، راغبين في اختراق كثافة أحاسيس الآخر، دون أن يتمكنا من تجاوز الفضاء الذي يوجد فيه كل منهما وحيداً في حدود جسده. وعلى الرغم من محاولاتهما، لم يتوصلا إلى رؤية المشهد المتشابك حيث تكمن أشد أفكارهما حميمية. وكانت معرفة ذلك العائق الذي يتعذر اجتيازه هو ما أحاطهما وجعل عضلاتهما وعظامهما تتفتح دون أي اعتبار ليتخذا الحميمية الوحيدة الممنوحة لهما بالكامل، والتي بلغا ذروتها على الضفة، وسط الوحل والطحالب عند حافة النهر.

عندما انطلقا في المسير عائدين إلى المغارة، كان وهج النهار ينسحب مفسحاً المجال لضوء المساء الخفيف والمرحب. وكان النسيم يهب. خلفا وراءهما غابة الضفة ليجتازا السهل باتجاه الجبل. وفي الطريق لمحا من بعيد جماعة فيلة وقطيعاً من الوعول ذات القرون الطويلة. بدت كما لو أنها تهيم على وجهها مثلهما دون وجهة محددة. لقد أكلت الحيوانات أيضاً من الثمرة المحرمة، فكرت المرأة. وربما

هـي تعتبرهمـا المسؤولين عـن طردهمـا مـن الجنـة. تـذكـر آدم الـضباع. وتـساءل إذا مـا كانـت هـذه الحيوانـات وادعـة أم أنهـا سـتهاجمهما. واقترحت حواء ألا يقتربا منها كثيراً.

ـ إنـني أفتقـد قـايين ـ قـال آدم متـذكـراً فـي النهايـة كلباً كـان يرافقه في الجنة.

ـ وأنـا أفتقـد الهـرّ ـ قـالـت حـواء ـ هـلـم بنـا ، فلنـذهـب إلى الجنـة للبحث عنهما.

10

عندما لمحا مجدداً بداية الجنة وبُعدها الملتبس في الوسط، أحس آدم مرة أخرى دموعه تسيل. لو أنه كان حيواناً لصرخ حزناً أمام ذلك السراب الذي صار بهاؤه العصي على الوصف حرقةً دائمة في ذاكرته. بذل جهده ليكبح عبارات التأنيب للمرأة، والحيّة، وإلوكيم. فلن يفيده في شيء التعقل والتحدث به معها، ولم يكن قادراً، في تجويف وحدته، التخفيف من ثقل إبعاده عن ذلك المكان الذي خُلق فيه ليحيا كأشد المخلوقات خصوصية وسعادة.

رأى حواء تتقدم وتتوقف وراء بعض الشجيرات المزهرة، وتشم الأزهار. ولاحظ أن بشرتها أكثر سمرة، ذهبية، كما لو أنها تدبرت أمرها بطريقة ما للحفاظ على الألق الذي كانت عليه في الفردوس. لحق بها. قال لها إنه عليها عدم الاقتراب كثيراً من الهوة كيلا تحاصرهما النار مرة أخرى وتجبرهما على التراجع.

مشيا على مسافة حذرة من الهاوية، هو لجهة الشرق وهي لجهة الغرب. النباتات الزاحفة التي انفصلت، بعد الكارثة، عن أرض الجنة الخصبة، ظلت تنمو في الأرض الضاربة إلى الحمرة، رافضة الموت. وجدا في طريقهما أعشاباً طويلة، وآجام شجيرات، ونباتات ذات أوراق مسننة وشوكية تعرقل مرورهما وتلحق الأذى بأرجلهما. عرفا سُمَّ النمل ولسع الهوام والبعوض. وكانت حواء تكلم الحشرات لتنصاع لها وتتركهما بسلام. وحين أدرك آدم أن ذلك لا يفيد، صار

يتقدم وهو يضرب بيديه ويهزهما خبط عشواء. رأيا أرانب، وديوكاً برية، وسناجب، وفئراناً، وكانت جميعها تهرب فزعة بدل أن تقترب منهما كلما ناداياها. سمع آدم عواء الذئاب عن بعد، وتخيلها بعيدة وخائفة. تساءل إن كانت الذئاب التي عرفها قد التقت بأخريات مثلها مجرية في العيش خارج حدود الجنة. أحس بالشوق إلى الأسود ذات اللُّبَد الذهبية، والزرافات ذات الأعناق الطويلة والعيون العذبة، وطائر الفينيق العظيم، واشتاق كذلك، بكل تأكيد، لكلبه القوي والذكي الذي كان يستجيب على الدوام لكل رغباته.

- قايين - نادى - قايين.

رآه عند حلول المساء. كان يلعب مع ذئب صغير، غير عابئ بالرجل الذي يبحث عنه. وحين رآه الكلب انتصبت أذناه وجاء راكضاً ليلحس يديه. جثا آدم واحتضنه. وكان الرجل كما الكلب حين شعر بأنه تعرف إليه. راقبهما الذئب الصغير لحظة. بدا أنه سينضم إلى لعبهما، لكنه استدار واختفى بين الآجام. ابتسمت حواء حين رأت الرجل يتقلب على الأرض مع قايين. لم تلعب هي والهر بهذه الطريقة. فالهر لم يعاملها قطّ كما لو أنها هرة، أما قايين فيمرح ويتفاهم مع آدم كما لو أن هذا الأخير كلب مثله.

لم يكن سهلاً عثور حواء على الهر في نهاية المطاف. وقد استخدمت الكثير من الكلام العذب لجعله ينزل عن فرع الشجرة الذي كان يقف عليه هَلِعاً، يموء بحزن. بصقت في يدها لتقدم ماءً لفمه الجاف. اقترب الحيوان ماشياً بتمهل على غصن منخفض، ولكنه نزل عن الشجرة عندما حكّت ظهره بأظفارها، وتَمَسَّح بساقيها.

وبرفقة الكلب والهر، انطلق الرجل والمرأة في طريق العودة إلى الكهف. كان الرجل يتقدمها. وكان يرمي قطعة خشب للكلب الذي يركض لالتقاطها والعودة بها. كان آدم يبتسم. ولم تره يبتسم هكذا مذ منعتهما السنة اللهب من العودة إلى الجنة. كان يمشي واثقاً من وجهته. أُعجبت بحسه في التوجه. لم يكن يستخدم أنفه مثلما يفعل الكلب. كان يمد ذراعه، وينظر إلى البعيد، يقطب حاجبيه ويبدو أنه يعرف إلى أين يتوجه. كان ظهره عريضاً جداً. وربما هو ما يسمح له بالتوجه بصورة أفضل. أما هي فكان المشهد يشوش قدرتها على التوجه. والسهل متسع جداً. نظرت إلى الهر وهو يمضي إلى جانبها بخطوات خفيفة. ومع أن الحيوانين لا يتكلمان، إلا أنهما كانا يرتعشان من الشعور بالخذلان والوحدة. كانا يختفيان أحياناً بين النباتات، ولكنهما يرجعان عندما يستدعيانهما.

مشيا وقتاً طويلاً. كان جسد حواء يتثاقل أكثر فأكثر. الخواء الذي يزمجر في معدتها منذ الصباح بدأ يؤلمها الآن. تخيلت أن حيواناً صغيراً ينهش جوفها، ويعضها. لم تشعر بشيء مشابه قط. نظرت بطرف عينها إلى آدم الذي كان يمشي ببطء أيضاً. وكان لون السماء يتبدل، وقد تحولت حواف السحب فيها إلى وردية. سمعت ما يشبه الزمجرة. التفتت. كان آدم يضغط معدته منحنياً على نفسه.

- أتشعر بخواء؟ هل يؤلمك؟

- إنه الجوع يا حواء.

- وماذا سنفعل؟

- لا أدري.

- المغارة مازالت بعيدة. وأنا أتألم أيضاً. لا أريد المسير أكثر.

- فلنبحث عن شجرة. ولنجلس.

بحثا عن شجرة يستندان إليها. وكان عليهما أن يمشيا مسافة لا بأس بها ليجداها. فقد كانت الأشجار قليلة جداً، وواطئة. أما أشجار النخيل بالمقابل فتعلو دون توقف، نحيلة، متفلتة من الرياح.

استراحا أخيراً. تهاويا على الأرض. وقبع الكلب والهر إلى جانبهما. لقد جاء الجوع فجأة مثل التعب. نام آدم الذي غلبه النعاس. ورأت حواء النهار يتحول إلى غسق. بدت لها الظلمة رقيقة هذه المرة، ضباب كثيف يلف كل شيء. بعد هنيهة ميزت عيناها أشباح كل الأشياء القريبة. وقد طمأنها ذلك. سمعت صفيراً، وتغريد طيور كئيبة، وأصواتاً خشنة لا يمكن وصفها. لاحظت أن ثقوباً تنتشر في ظلمة السماء وتسمح بمرور الضوء. وتساءلت إن كانت تسقط منها البتلات البيضاء التي كانا يتغذيان عليها من قبل. هذه الذكرى وطعم ثمر التين المحرم زادا من لعابها وتشنج معدتها. آدم يظن أنه سمع الصوت يحكم عليهما بأكل العشب والشوك. تلمست حواء الأرض حولها، وانتزعت بعض الأعشاب، ومضغتها. المذاق التافه، بمرارته الخفيفة، أراحها. تنصلت من أكلها الثمرة، ورأت أنها تصرفت باعتداد شديد بنفسها، وبكثير من التحدي. وتساءلت إن كان ما تلهفت لمعرفته يستحق هذا العناء. وفكرت، يا لضآلة نفع المعرفة والحرية في تسكين الجوع! لو أنها كانت أكثر وداعة، هل كان إلوكيم سيستبقيهما في الجنة؟ ولماذا يتصرف بكل هذا الغضب إذا كان ذلك كله من تخطيطه؟ ربما تختلط على إلوكيم العوالم التي يخلقها وينسى الخطط التي يفرضها على كل واحد منها. وقد ظنت، هي الساذجة، أنه سينكشف لها بأكل الثمرة المغزى الخبيث والميمون لذلك كله.

استيقظ آدم تحت سماء الفجر الحمراء. ولم تسبب له الذعر هذه المرة، بل نشطته. وقرر أنه يفضل النهار على الليل. وعلى بعد خطوات

قليلة من الشجرة التي احتميا بها ، لمح شجرة أخرى تتدلى من أغصانها ثمار خضراء. ترك حواء نائمة وذهب لتناول الثمار ، إنها كمثرى ، فكر. وامتلأ فمه باللعاب. قدم واحدة للكلب. رآه يقضمها. رأى رحيق الثمرة يقطر من فم الكلب. انتزع ثمرة أخرى. لم ينه حركة رفعها إلى فمه. رماها بعيداً. فلحق بها الكلب راكضاً. غطى آدم وجهه بكفيه. كان يشم أريج الكمثرى على أصابعه. لا! صاح مثقلاً فجأة برعب أشد من الجوع. خلفته رائحة الثمرة مبهوراً. لا يمكن المجازفة ، قال لنفسه. فهو لا يرغب في مجرد تصور العقاب الذي سيفرضه عليه إلوكيم إذا ما غضب منه هذه المرة. فالثمار خطرة. لبّها ممتلئ بغضب إلوكيم. وإذا ما أكلاها فإنه سيلقي بهما إلى مكان أبعد بكثير. ولن يتمكنا من العودة إلى **الجنة** أبداً.

استيقظت حواء. شمت رائحة الكمثرى في يديه.

ـ من أين تأتي هذه الرائحة يا آدم؟ هل أكلت؟

أراها شجرة الكمثرى. ولكنه قال لها إنه لم يأكل. ويتوجب عليهما ، هو وهي ، ألا يأكلا الكمثرى.

نهضت مسرعة. ركضت باتجاه الشجرة. ولحق هو بها.

ـ لقد حظر علينا أكل ثمر شجرةٍ يا آدم ، وليس كل الشجر.

ـ حظر علينا الأكل من شجرةٍ وطردنا من الحديقة كيلا نأكل من شجرة أخرى. أقول لكِ إنه علينا عدم أكل الثمر. إنها خطرة. لا يمكننا المجازفة من جديد يا حواء.

نظرت إليه غير مصدقة. كان الجوع يخز أعماقها. وكانت رائحة الكمثرى القريبة جداً تمنعها من التفكير. حاولت الحصول على ثمرة. ولكن آدم منعها. وبدأ الكلب ينبح.

ـ لا يمكنك إجباري على عدم الأكل.

ـ انظري كيف صرنا يا حواء، إننا وحيدان، جائعان، مخذولان. أية مصيبة أخرى تريدين مني أن أتقاسمها معك؟

أحست حواء بتهيج في وجهها وصدرها. كبحت رغبتها في الانقضاض على آدم يملؤها الغضب والإحباط. أرعبها اندفاعها. وبخجل، بتشوش، اندفعت راكضة. ركضت وركضت. وفي هواء الصباح الخفيف والبارد استعادت السكينة.

ركض آدم في أثرها.

ـ أين تذهبين؟ لماذا تركضين؟ ـ كان يسألها.

توقفت عن الركض.

ـ يُغضبني أن تذكرني بأنني أكلت الثمرة كلما أردت مني أن أنصاع لك.

ـ لا أستطيع تجنب ذلك حين يسيطر عليّ اليأس ـ قال لها.

ـ الأكل كان قرارك.

ـ أجل، ولكنك أنت من قدمتِ لي الثمرة. وأنت من أكلت أولاً.

ـ لم أكن أعلم ما سيحدث. وأنتَ أيضاً لم تكن تعلم.

ـ كنا نعرف أننا قد نموت.

ـ ولم يحدث ذلك.

ـ لم يحدث فوراً، ولكننا سنموت.

ـ أنت ترى أن إلوكيم لم يتركنا نموت. ألا تظن أن توصلنا، أنا وأنت، إلى معرفة أحدنا الآخر كان جديراً بالعناء؟ وكذلك معرفة مذاق التين؟ وبرودة الماء؟

ـ والجوع؟ والألم؟

ـ لن نجوع إذا ما تخليت أنت عن الخوف.

كانا يقتربان، في طريق عودتهما، من الجبل الذي فيه

الكهف. حوّم ظلٌّ فوق رأسيهما. رفع آدم بصره. وبعد الانبهار الفوري من النظر إلى الشمس، ميز في سماء الغروب الخفيفة الريش الفاخر لطائره المفضل، جناحيه الواسعين البرتقاليين والذهبيين، ورأسه الصغير المتوج بقنزعة زرقاء. إنه الفينيق.

ـ إنه الوحيد الذي لم يأكل معنا من شجرة المعرفة ـ هتفت حواء

ـ من المؤكد أنه يدخل إلى الجنة ويخرج منها دون أن توقفه النار!

تساءل آدم إذا ما كان ظهوره علامة. ربما سيحملها الفينيق إلى الجنة متجاوزين الهاوية. ملأه هذا الاحتمال بالضحك والخفة. أحس بدافع يدفعه إلى القفز، إلى هز ذراعيه. في إحدى المرات حمله الطائر في الفضاء إلى البحر قبل ظهور المرأة. تركه في الماء فرأى المخلوقات الواهية والخفيفة التي تسكن أعماقه. سمى سمكة المطرقة، والحوت، والقرش، والشَفنين، والدلافين، والسردين، والحلزونات، ونجوم البحر. تأمل الأعماق الدافئة والفتحات التي ينطلق منها البخار تحت الأرضي نحو السطح. رافقته أسماك مضيئة في طريقه حيث عرف الظلمة أول مرة. وكانت معرفته لذلك العالم الذي بلا نور هو ما ورد إلى ذاكرته خلال الليلة المظلمة الأولى في حياته. تذكر الأسماك الصغيرة ذات الظهور الملونة التي يربط بينها وبين أصابع قدمي حواء، وفي تلك اللحظة بالضبط كان الطائر يهبط، محركاً الهواء الهادئ، ويضع ثمرتي تين أمام المرأة. ثم ارتفع محلقاً ومتوجهاً بمنقاره وجناحيه نحو الفردوس.

تناولت المرأة ثمرتي التين. ما إن رأتهما حتى امتلأ فمها مسبقاً بمذاق الثمرة، برحيقها، بلبابها. وبخفة هرّ، انتزعها آدم من يديها.

ـ لا يا حواء، قلت لكِ لا للفاكهة. وخاصة التين.

ضغط الرجل ثمرتي التين في يديه. تابعت عيناه وجهة طيران الفينيق. ضايقته خيبة الأمل برؤيته يمضي دون أن يحملهما ويعيدهما إلى الجنة.

- إنني جائعة جداً - قالت مذعورة - يجب أن نأكل يا آدم. إننا بحاجة إلى الأكل.

- بي من الجوع مثل ما بكِ، لكن المصيبة تجعلني أفكر.

- ولكن هذه الثمار أحضرها الطائر يا آدم. لقد فعل ذلك مبعوثاً من الآخر.

- لسنا نعرف يا حواء. أنا ظننت أن الفينيق سيعيدنا. أما ثمرتا التين هاتان... نحن لا نعرف يا حواء إذا ما كانتا ورطة أخرى - قال معانداً - . نحن مازلنا لا نعرف إذا كان الآخر معنا أم ضدنا.

أفحمها انبهار آدم وعناده، فابتلعت حواء دموعها التي أحست بمذاقها المالح في فمها الجاف.

- أرجوك يا آدم، لا ترمِ ثمرتي التين. خبئهما.

دفنهما هو عند مدخل المغارة. حفر الأرض مستعيناً بحجر. وتحت السماء المرصعة بالنجوم، لم تتراجع حواء عن محاولة جعله يتخلى عما يفعله. توجد ثمرتان يا آدم. أعطني واحدة. ولكنها لم تقنعه. استلقيا للنوم دون أن يتبادلا الكلام، دون أن يتلامسا، كل منهما مستسلم لمحاكمة الآخر بصرامة. جوعها يتخيل التين يتحلل في التراب؛ ما كان يمكن له أن يكون في فمها، ضاع بسبب تزمت الرجل وقسوته. فقد كانت قسوة منه أن يجبرها على رؤيته يتخلص من الثمرتين، والأسوأ من ذلك أنه يقرر عن كليهما. لقد تصرف كما لو أنه لا وزن ولا صوت لكلماتها، كما لو أنه لم يسمعها. وكانت هي وكلماتها الشيء نفسه. فعدم سماعها يعني أنها غير موجودة،

وتركها وحيدة. وكان هو واعياً أنه لم يستمع إليها. الاستماع إليها يُضعفه، يبلبل نواياه. إنها شديدة الثقة بنفسها، وهو لم يعد يعرف بماذا أو بمن يثق. ولكنه يعرف بالمقابل أنه يحتاج إليها. يفتقد دفئها، جسدها. أيقظتها يده تتسل بوجل تحت خاصرتها سعياً لأن تفسح الطريق لليد كي تدخل وتحتضنها. ففي الليل كان آدم يضعها في منتصف جسده، ظهرها يستند إلى صدره. إحساسها بالرجل يبحث في الظلمة ليعثر عليها أثر فيها وليّنها. ولم تكن ذكرى غضبها كافية لصده. سمحت لذراع آدم أن تتقاطع مع صدرها وتستريح عليه. كانت تشعر بالبرد. فالمغارة لطيفة البرودة وتحمي في النهار، ولكنها في الليل تضيّع الروح. كان عليهما أن يستثيرا دفئهما الخاص باحتكاك أحدهما بالآخر. استكانت بصمت بين ذراعيه. وهمس في أذنها أنه سيأخذها في اليوم التالي إلى البحر.

11

مشيا إلى أن واجهتما طيور النورس ورائحة الرطوبة المالحة.

وأمام أعينهما ظهر الحوض الأزرق الهائل وعميق الغور. خاض الكلب في الماء دون خوف. كان يتقافز وهو ينبح دون توقف. أما الهرّ فريض على الرمل يراقبه دون مبالاة. أخبر آدم حواء باكتشافاته. أراد أن يريها ما كان قد رآه. خاضا في الماء. تقدمت هي بحذر. والجهد الذي كان عليها بذله للسير وسط تلك الكتلة السائلة أشعرها بالقصور، بالتثاقل.

ـ والآن يا حواء ـ قال آدم عندما وصل الماء إلى مستوى ذقنها ـ. اغطسي الآن، افتحي ذراعيك، وادفعي نفسك إلى العمق.

لا جدوى. فمهما حاولت النزول، كان يمنعها اختناق في الأنف، في الفم، في الحلق، والماء الذي يدفعها إلى السطح. حاولت، يائسة، أن تخرج إلى الشاطئ بذراعيها وساقيها. وانتبهت إلى أن آدم يتبعها مشوشاً وخجلاً. لم يعد الأمر كما في السابق، قال لها. فجسده لا يستجيب، إنه لا ينزل أكثر من بضع ضربات من ذراعيه ويدخل الماء من كل جانب ولا يتمكن من التنفس. البحر للنظر إليه، قالت له حواء عندما عادا إلى اليابسة وتعافيا من الماء المالح الذي ابتلعاه. لقد خلفتهما المحاولة منهوكين ومشوشين، وخاصة آدم. فقد ألح كثيراً في وصف عالم أعماق البحر. وهو يرتاب الآن في أن يكون قد رآه يوماً. أيكون ذلك حلماً مثلما صار معظم وجوده في الفترة الأخيرة.

ـ ولكن البحر ليس للنظر إليه وحسب ـ قال بتصميم.

استلقت حواء على الشاطئ وأغمضت عينيها. صوت الأمواج التي تخدش الضفة دون راحة كان كدوي التساؤلات الدائمة التي تتشكل وتتحلل في ذهنها.

بعد قليل رجع آدم. جلس إلى جانبها.

- انظري، لقد جئت بشيء من أجل جوعك - قال.

كانت أصدافاً خشنة الملمس وبيضاوية الشكل. وعند فتحها تبين أنها مملوءة بمادة كثيفة، بيضاء ورجاجة تُخلّف الفم نظيفاً، كما لو أن الماء قد لحماً رهيفاً ومالحاً. وعلى صخرة، كان آدم يضربها بحجر لتظهر الثمرة التي فيها. محار، قال آدم، وكررت حواء ضاحكة: محار.

- كيف عرفتَ أن شيئاً يمكننا أكله في داخلها؟

- مثلما عرفتُ اسمها. هكذا بالضبط.

لم يرجعا إلى المغارة حتى اليوم التالي. أمضيا الليل على شاطئ البحر، أحدهما بعيداً عن الآخر، يشعران بالخزي من اضطراب أحشائهما: الأصوات، الروائح، البعد. كانا يتجادلان حول إذا ما كان جسداهما قد تعفنا، وإذا كان ما يحدث لهما هو عقاب آخر لأنهما أدخلا شيئاً آخر في فميهما، عندئذ رأيا الكلب والهرّ يبولان، يتبرزان، ويغطيان فضلاتهما بالرمل.

- هل تظن يا آدم أن الحيوانات تعرف أنها حيوانات؟

- إنها لا تظن على الأقل أنها شيء آخر. فهي لا تخطئ الظن بما هي عليه مثلنا.

- وماذا تظن أننا نحن، فضلاً عن كوننا حيوانات؟

- إننا آدم وحواء.

ـ ليس هذا جواباً.

ـ حواء، حواء، أنت لا تتعبين أبداً من الأسئلة.

ـ إذا كانت الأسئلة تخطر لي، فلا بد أن تكون لها أجوبة، وعلينا أن نعرفها. أكلنا الثمرة، فخسرنا الحديقة ولا نكاد نعرف شيئاً أكثر مما كنا نعرفه.

تبادلا الحديث في طريق عودتهما إلى الكهف. إنه عقاب، دون شك، قال آدم مفكراً في أن الجسد ينتقم بتلك الطريقة عندما يأكلان، ولكن الحقيقة أنه، هو على الأقل، يشعر بأنه أحسن حالاً، وبقوة أكبر في عضلاته، ومعنويات أفضل.

ـ أمر معقول. إخراج ما يبعث رائحة كريهة من داخلنا يوفر الراحة. يا له من شعور غريب... شعور مختلف جداً عن الألم، ألا ترين ذلك؟

وبابتسامة أخفت حواء الحياء الذي يوحي به الموضوع. فرؤيتها نفسها تبتلع وتُخرج مثل الكلب والقط، يصغِّر من شأنها، فضلاً عن أنه يثير قرفها. لم تفهم كيف يستمتع آدم بما ترى فيه إذلالاً. لم تفهم عدم اكتراثه بالحنق الذي يستدعيه ذلك.

ـ لم يكن الآخر يلعب عندما قال إننا من تراب وإلى تراب سنعود. فكم ستدوم برأيك هذه الأبدان؟ ـ سألها آدم.

ـ لا أدري. ما أعرفه فقط هو أن جسدي يتألم أكثر من جسدك.

بدأ ماءٌ بالهطول من السماء الرمادية. قطرات غليظة تصفع ظهريهما. دخلا راكضين إلى المغارة. كان المطر يهطل مدراراً. وفي السماء، كانت هناك شجرة ذات تفرعات مضيئة ومتلألئة تسوط الأرض. فترد الأرض على انقضاض تفرعات الضوء بدوي مكفهر. وفي الظلمة رأيا عيني الهرّ المتلألئتين. وكان الكلب يتشمم الأرض.

رقد الأربعة على المسطح الصخري الذي استخدموه فراشاً. وراح آدم وحواء يتأملان وهما متعانقان البروق والدوي باضطراب وخوف.

ـ هل ستسقط السماء؟ أتكون النجوم هي التي تتساقط؟ ـ سألته حواء.

ـ لا أظن ـ قال آدم ـ. النجوم بعيدة جداً.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ لست متأكداً.

استيقظت حواء وهي تنزف من بين ساقيها. ارتعبت حين نهضت واقفة ورأت السائل الأحمر ينز من عضوها الجنسي. وعلى بريق الفجر، بدت المغارة ممتلئة بالضباب. ففكرت، حتى الغيوم نفسها لاذت بالمغارة هرباً من غضب السماء. وفي أسفل بطنها كانت هناك قبضة تنفتح وتنغلق معذبة إياها. كان السائل الأحمر دافئاً ولزجاً. اقترب الكلب ليشمه. فأبعدته متضايقة.

ذهبت إلى ينبوع المغارة واغتسلت، لكن الدم واصل التدفق. أيقظت آدم. فقال إنه سيجيء بأوراق لتنظيفه. وقال لها أن تعود إلى الاستلقاء. كانا خائفين، وكل منهما يخفي خوفه عن الآخر. رجع الرجل بعد قليل. وكان يحمل ملء يديه ثماراً وأوراق تين، ووجهه يشع بهجة.

كان المطر قد أنبت شجرتي تين من الثمرتين اللتين دفنهما عند مدخل المغارة. وكانت الشجرتان الناضجتان مترعتين بالثمر.

ـ انظري يا حواء، انظري. إنها لنا. يمكننا أن نأكلها.

وبثمار التين وماء الينبوع أعدّ آدم لزقة لجرح حواء.

ـ أيعني هذا أنني سأموت يا آدم؟ لا أشعر أنني سأموت. إنه يؤلمني في العمق للحظات متفرقة.

ـ من الأفضل أن تظلي هادئة. كلي ثمرة تين.

خـرج آدم مـع الكـلـب. وبينمـا حـواء تـستلقي فـي عتمـة المغـارة، فتحـت ثمـرة تـين ونظـرت إلى داخلـها الـوردي والحلـو، ولبهـا وبـذورها الحمـراء. جسدي مختلف عـن جسد الرجـل، فكـرت، الـسائل الـذي يخـرج منـه حـين يـصرخ وهـو فـوقي أبـيض اللـون. أمـا سـائلي فـأحمر ويخرج مني حين أكون حزينـة. ثنـت ركبتيهـا إلى صدرهـا. لم تـستطع نسيان كلماته باتهامها بنكباته. إنهـا تـؤلم مثـل الأحجـار الـتي مزقـت قدميها عندما صعدا الجبل ليرميا بنفسيهما إلى المـوت الـذي أنقـذهما منه إلوكيم. كانت مقتنعة أن سبب إنقاذه لهما هو السبب نفسه الذي دفعهما من أجله إلى أكل ثمر شجرة المعرفة: إنه يريد رؤيتهما يعيشان بالاعتماد علـى نفسيهما. وقد أدركـت هـي ذلـك، ولكـن آدم لم يـشأ فهم الأمر. فمن الأسهل عليه أن يحملها هـي المسؤولية علـى أن يحملـها للآخر الذي لا يسمح بأن يُرى.

بعد غياب الشمس، أذهلهما الضياء الـذي يلـف الليل. فمـن داخـل المغـارة كانـت أغصـان شـجرتي الـتين تبـدوان لهمـا لامعـتين ومحـددتين بوضـوح بضوء رمـادي. ظنـا أن الظلمـة ممتلئـة بمـاء، وخرجـا لرؤيتهـا. ذكّرتهما القبة السماوية بمنظر سطح القمر وهي تمتـد مـن جانـب إلى آخر فـي الليل النقي بعد المطر. وفـي الأعالي، كان هنـاك نجـم دائـري مضيء وشاحب يتدلى خفيفاً وباسماً.

- تبدو الشمس جميلة وهـي منطفئة - قال آدم.

- ليست الشمس. إنه القمر. ولهذا السبب أنا أنزف.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- لا أدري - قالت حواء - ما أعرفه أن فـي داخلي بحراً يملؤه القمـر ويفرغه.

لم يوجه آدم مزيداً من الأسئلة. فتنة الغموض المتضمن فـي وداعـة

حواء غير المعهودة، وعبق الهواء النقي، والضوء بلا حَرٍّ الذي يحدد محيط الصخور والأشجار، والسماء المتنامية نحو ارتفاعات غير متناهية تضمخ عينيه وبشرته. وإلى جانب ضآلته ومعرفته أنه مخلوق ضعيف تائه في المنفى، عرف يقينَ أنه هو وهي يشكلان جزءاً جوهرياً من ذلك المشهد الليلي المقفر والكئيب.

- أتظنين أننا وحيدان يا حواء؟ أتظنين أنه لا وجود لآخرين مثلك ومثلي في هذه الامتدادات الفسيحة؟
- هناك آخرون. لقد رأيناهم في الأحلام.
- أيكونون مختبئين في داخلنا؟ أيظهرون حين نكون نائمين؟
- لا أدري يا آدم.

فكرت حواء في أن المعرفة ليست النور الذي كانت تتخيل أنه سيفتح فجأة إدراكها، بل كشف بطيء، متوالية أحلام وحدس تتراكم في مكان سابق على الكلمات؛ كانت الخصوصية الحميمة تتنامى بينها وبين جسدها. ففي ذلك السيلان، في ثقل أسفل بطنها وفي نهديها، في الألم الذي يملأ الآن المكان الذي يغوص منه الرجل فيها، تحس مسبقاً بفوران حياة، بينبوع ينبثق منه ليتوزع في اتجاهات لا تخطر على بال. لم تشأ الخروج من الكهف خلال أيام نزفها. فقد أمضت تلك الأيام متكورة على نفسها تتناوم، كما لو أن الأحلام هي الواقع الوحيد الذي يهمها.

12

تين، كمثرى، ثمار مُرَّة، أعشاب حبوب ذهبية تُشبع الحاجة إلى المضغ، كان آدم يجمع كل ما يظن أنه يُبعد الجوع، لكن الجوع كان يرجع. فما إن يفتح عينيه كل صباح حتى يشعر به مستقراً في مركز بدنه، يعيش فيه مثل مخلوق غريب على إرادته، طاغ وقاس. ماذا يمكنني أن أقدم إليه؟ يتساءل الرجل. الثمار لا تكاد تهدئه مع أنهما، هو وهي، يتلذذان بمذاق لب الثمار الحلو، ولا تني تذهلهما قدرة الأشجار على إخراج مثل تلك الأطعمة من جذوعها وأوراقها. وفي مسيراتهم في محيط المغارة، كان آدم قد تذوق كذلك نملاً وحشرات أخرى، ونباتات سميكة ولحمية وجد داخلها ليناً وشبه سائل. لاحق السناجب، وأحب البذور القاسية التي تمضغها بأسنانها الطويلة، لكن جوعه كان أكبر من كل تلك الأشياء الصغيرة التي يجدها ويتقاسمها مع حواء. وكانت هي، خلافاً له، لا تمل من اللجوء إلى شجرة التين لتُشبع جوعها. كانت تفكر في أن ظهور طائر الفينيق وثمار التين بين قائمتيه، والطريقة التي نمت بها الشجرتان وكبرتا بين ليلة وضحاها، هي إشارات مؤكدة على أن هذه الثمار هي التي ستحل محل البتلات البيضاء التي كانت غذاءهما في الجنة.

كان آدم يقبع ساكناً بين الأعشاب خوفاً من لقاءٍ مثل الذي جرى له مع الضباع، ولم يكن يتجرأ على الاقتراب من الحيوانات الكبيرة. كانا يكادان لا يشعران بوجودها لأيام طويلة بعد الكارثة الكبرى. وعلى الرغم من أن الأرض كانت تهتز بين حين وآخر، إلا

أنها بدت خربة وساكنة. ومع ذلك بدأ يسري مع الهواء، ببطء، خليط أصوات مألوفة، ويصل إليهما. ففي الليل يسمعان عواء الذئاب، وفي النهار يمتلئ الفضاء، من بعيد، بزمجرة الأسود أو صَئِيّ الفيلة القوي. وكانت حيوانات صغيرة: ديوك برية، قردة، مناجذ، غُريرات، أرانب تتحرك بين الأعشاب الطويلة وفي بعض الأحيان تقترب منهما وتلتقي عيونها بعيونهما قبل أن تنسل مسرعة لتختفي وسط النباتات وقد تلبسها كما يبدو خوف كالذي تبعثه فيهما رؤية الضباع. أسراب من طيور اللقلق، والبجع، والبط، تمر محلقة فوق رأسيهما. وكانت حواء تقول إن نعيقها يهز قلبها لأنه يبدو لها ممتلئاً بنداءات واستفسارات.

كان الهرّ والكلب يثيران استغراب آدم، فهما يكادان لا يأكلان الثمار، ويبدو مع ذلك أنهما لا يكابدان الجوع الذي يعذبه. ما الذي يفعلانه خلال تغيبهما عن المغارة ساعات طويلة؟

اكتشفَ الجواب ذات صباح، عند الفجر. أيقظه سرب طيور مغردة حطت على أغصان شجرة التين. جلس على صخرة يتأمل الشحارير تتقافز وتغرد وتنقر التين. وكان الهرّ والكلب هائجين لا يتوقف أحدهما عن النباح والآخر عن المواء بينما هما يدوران حول الشجرتين. كان قايين يطفر قافزاً على قائمتيه الخلفيتين كما لو أنه يريد الطيران. وكان الهرّ يقوس ظهره متخلصاً من النعاس وينظر إلى العصافير بملامح غير مفهومة. وفجأة، بعد أن حك الهرّ جذعه، مطّ ظهره وقفز بخفة ومهارة نحو غصن منخفض. صعد إلى أعلى الشجرة وقبع بين الأوراق. راقبه آدم بافتتان. ورأى كيف أنه، بحركة خاطفة من ظلفه، أمسك بضربة من مخلبه أحداً من تلك العصافير الصغيرة وثبته من عنقه بأسنانه. نزل بفريسته عن الشجرة وهو يموء بضراوة مستخدماً مخالبه الطويلة لإخافة الكلب، وركض ليختبئ

بين بعض الآجام. وقف آدم على رؤوس أصابعه، وأطل ليرى ما يفعله. رآه يبدأ لعبة لا توازن فيها مع العصفور، يحاصره، يخمشه ويعضه إلى أن أنهكه. ورأى بعد ذلك كيف أنشب أسنانه في اللحم وراح يأكله باعتدال. ابتعد آدم متقززاً. وبعد قليل خرج الهرّ من مخبئه وهو يلحس فمه، واستلقى راضياً تحت الشمس ليغفو قيلولة.

داهم الجوع آدم فجأة مثلما داهمه الاشمئزاز. ظل ساكناً. تناول ثمرة تين. قضمها. تساءل عما إذا كان مذاق دم العصفور مختلفاً. وفجأة أدرك معنى العظام والروائح التي يشمها في جولاته، والتأوهات الغريبة، وأصوات النمور المتربصة. نظر إلى شجرة التين بضيق وتقزز. بصق الثمرة. فكر في الطريق الطويل إلى البحر وبالأصداف. وعرف ما عليه فعله.

دخل إلى المغارة بحثاً عن العصا الطويلة التي ثقف طرفها على صخرة ليستخدمها في كسر أصناف الجوز والنبش عن جذورٍ مرّة الطعم. إلى أين أنت ذاهب؟ سألته حواء. فقال آدم إنه سيذهب لتقصي أصوات قطيع حيوانات يحوم في السهل. كان يريد أن يعرف إن كانت تتيح له الاقتراب منها. لم يفلح في تفسير عدم إخباره لها بالحقيقة. كن حذراً، قالت له. سأكون كذلك. وخرج مع الكلب. أما الهرّ فظل مع حواء.

كانت حرارة الشمس أكثر دفئاً في السماء الخالية من الغيوم. قرر المضي في اتجاه معاكس للجنة، نحو السهوب الفسيحة حيث تظهر في أقصاها تكوينات صخرية ومجموعات من أشجار النخيل. إذا كانت الحيوانات الأخرى تمضي باحثة أيضاً عما تقتات عليه، فلن يكون متأكداً من أنها لن تعتبره قوتاً لها. كان خائفاً، ولكنه

كان متعجلاً أيضاً. وكان قايين قلقاً كذلك، كما لو أنه يدرك ما يفكر فيه الرجل.

لم يكونا قد مشيا كثيراً عندما رفع قايين أذنيه. رأى آدم الأرنب وانحنى. حاول أن يناديه كي يقترب الأرنب بنفسه.

أرنب، يا أرنب. وقف الحيوان الصغير على قائمتيه الخلفيتين، ورفع أذنيه. اندفع الكلب نحوه. وعندما وصل إليه آدم، كان قايين يمسك به بين مخالبه جثة بلا حياة وينتزع قطعاً منه بأسنانه. ابتعد تاركاً الكلب يأكل. راقب ما يأكله وما يتركه، والتلقائية الخالية من التصنع التي يلتهم بها فريسته، والغيرة التي يحمي بها طعامه حتى من آدم نفسه. فعندما حاول الاقتراب منه، كشّر له الكلب عن أسنانه وزمجر. انتظر الرجل. رصد الأفق بارتباك. ما الذي يوجد في ما وراءه؟ أتكون هناك في الأسفل سماء أخرى مثل التي يراها في الليل؟ وما هو مذاق دم الحيوانات؟ استحث الكلب بالعصا كي يواصلا المشي. لم يمضِ وقت طويل. فقد اندفع قايين في إثر أرنب آخر. ركض آدم وراء الكلب واضعاً سرعة ساقيه في الاختبار. انتزع الأرنب من فم الكلب. كان رأسه يتدلى متهدلاً من جذعه.

جاء دور الرجل هذه المرة ليختبئ. جلس تحت شجرة. أغمض عينيه. أنشب أسنانه في جلد الأرنب الصغير. أحس بالدم واللحم تحت الفرو. وبأسنانه وأظفاره سلخ الجلد. انتزع إحدى قوائم الحيوان، وأكل اللحم الدامي والدافئ الذي له طعم المسك.

سمع الضحكة الخافتة. ضحكة ساخرة.

ـ انظر ما الذي صرتَ إليه. عليك الآن أن تقتل كي تأكل.

فكر أنه الصوت الذي في داخله، ولكنه تعرف بعد ذلك على النبرة المبحوحة، كما لو أنها تجرجر أحجاراً. ورأى الحيّة.

ـ إنكِ أنتِ. لقد عرفتكِ. ماذا تأكلين أنت؟

ـ لقد أكلتُ فئراناً وغزلاناً. الأرنب ليس سيئاً. ولكن انظر إلى نفسك، أنت من كنت تظن أنك متميز جداً، ها أنتذا هنا، تأكل مثل أي حيوان.

ـ أهكذا سنحيا في هذا العالم، يأكل بعضنا بعضاً؟

ـ الحياة تتغذى على الموت. إلوكيم يغضب ويفعل هذه الأمور: يحكم على جنس في الطبيعة أن يعيش على أكل جنس آخر. ولكنك ترى. لقد سمح لي أن آكل التراب، وسمح لكَ أنت أن تأكل العشب والشوك، لكنه غيّر رأيه. وهو يتيح لنا الآن أن يأكل بعضنا بعضاً.

ـ أنت تعرفينه جيداً.

ـ منذ زمن طويل ونحن معاً. فمنذ وجوده أنا موجودة.

ـ أنت موجودة لمخالفته.

ـ من دوني ستكون الأبدية شيئاً لا يطاق. أنا أنفحه الدهشة، وما لا يقال. لقد قدمتُ إليك أعطية ـ أضافت هامسة بخبث ـ، ستجدها حين تصل إلى المغارة. ستفيدك في الطعام، وكذلك في التدفئة. ولكن عليك أن تسرع. فقد حاولتُ تحذير حواء لكنها رفضت الاستماع إليّ. وإذا أنت لم تسرع يمكن لها أن تموت.

خدّر الإحساس بالذعر سلسلة ظهر آدم. أحس بتوتر في عضلاته، وتشنج في يديه. صاح منادياً قايين، واندفع باتجاه المغارة بأسرع ما تسمح به ساقاه، حاملاً بين يديه بقايا الأرنب ليتقاسمها مع حواء.

وبينما هو يمضي في المرج، رأى جماعة نمور زمجرت بوحشية. كانت تشكل دائرة تحمي فريسة ما. وبأبطأ ما يمكنه، محاولاً أن يشير إليها أنه لا ينوي منافستها، انحرف وراء بعض الصخور وعاود

الركض من جديد. تذكر أعداد الحيوانات القوية وكبيرة الحجم التي سيضع لها أسماء. وفكر في أنها جائعة جميعها، فمن سيأكل من؟

كانت لا تزال أمامه مسافة عليه اجتيازها عندما رأى الدخان واللهب يغطيان المغارة وشجرتي التين. هناك من غطى صخور المدخل بشجيرات وأعشاب. كانت النار تفرقع متعالية في ألسنة لهب مرتفعة. توقف دون أن يدري ما عليه عمله. كانت النار تُفقده العزيمة حتى قبل أن يعرف الخوف. فهي أقوى العناصر وأعظمها. ورؤيتها الآن، والإحساس بحرارتها ودخانها عن قرب، وتصور حواء هناك في الداخل، ملأه بالرعب والعجز. كان الكلب يلف ويدور كمن أصابه الجنون، ينبح ويعوي. اقترب هو قدر ما يستطيع، مقاوماً الحر، ومغطياً وجهه بيديه. بدأ يعوي أيضاً، ينشج، يضرب الأرض بقدميه، ينادي حواء بأعلى صوته. كان الدخان يخنقه. لا يمكن أن يكون إلوكيم قد سمح للحيّة بأن تقتلها. فهو نفسه كان قد قال إن موعد موتهما لم يحن بعد.

ناداه صارخاً، لاعناً، متوسلاً، ضحية أشد أشكال اليأس.

ـ إلوكيم، إلوكيييييم! ـ كان يصرخ وهو يلتفت ويتطلع باتجاه الجنة.

لم ينقضِ وقت طويل. رأى ظهور طائر الفينيق. كان الطائر يحلق بسرعة فارداً جناحيه الأحمرين والذهبيين. ضغط آدم قبضتيه. ما الذي يمكن للطائر فعله لإخماد النار؟ وبذهول، رآه يحط فوق الكهف الملتهب بجناحيه المفتوحين. وفجأة بدأت النار المنتشرة في كل الاتجاهات بالتراجع والاقتراب من جسم الطائر كما لو أنها كائن وديع يستجيب لنداء غير مسموع. تحول محيط الطائر بأكمله إلى حالة

اسفنجية، وجمع النار متضخماً ليحتويها كلها. كان اللهب يعانقه ويطوق بألسنته ريشه دون أن يبدل الطائر من وضعه الساكن. وأخيراً، بينما كان الطائر الضخم يشتعل فوق المغارة كأنه شمس، فتح جناحيه ورفع رأسه. راقب آدم المشدوه والمتحجر في مكانه تلك الهيئة الملتهبة التي تحترق دون أن تتلاشى للحظات، إلى أن تحول الطائر، ببطء، ودون أن يبدل وضعه كتمثال ضخم، إلى كومة من رماد. انطفأت النار، وخرج الرجل من حالة الرعب العاجز واندفع نحو مدخل المغارة متفادياً أغصان شجرة التين المتفحمة. كانت تنبعث من الجدران أبخرة تفور، لكن الطريق كان مفتوحاً. وجد حواء ترتجف وهي تقبع متكورة على نفسها تحت الينبوع الذي يسيل منه خيط ماء نحيل.

- إنها الحيّة يا آدم. قالت إنك بعد أن قَتلتَ الآن، لا بد لك من معرفة النار. ما الذي فعلتَه يا آدم؟

- فلنخرج. سأشرح لك كل شيء، ولكن اخرجي من هنا.

كان الوقت مساء. وكانت السماء أحزمة وردية وأرجوانية. وبينما بشرة حواء الدافئة تلامس بشرته، أحس آدم بالأسى على طائر الفينيق. وفكر، كنت أظن أنه طائر خالد. كان شبح النار يتأجج في ذاكرته. وبتأثر أرى المرأة بقايا الأثر المتفحمة. وبينما هو يبحث عن أوراق أشجار يمسح بها السناج الأسود عن وجهه وبدنه، جلست حواء على بعض الصخور. كانت تنظر إلى المغارة، وإلى شجرتي التين الميتتين عندما لاحظت أن يد الريح تحرك رماد الطائر برفق. ترفعها وتتركها تهوي مرة بعد أخرى، كما لو أنها تريد منحها ترتيباً معيناً قبل أن تحملها وتذروها. وكانت كومة الرماد تهتز فوق الصخرة دون أن تتبعثر، بينما لونها يتبدل، ويتحول ببطء إلى ريش أحمر وذهبي يخفق ويتخذ شكلاً يبدو أنه محفوظ في ذاكرة الهواء. وفي إحدى اللحظات، ظهر بين الريش

رأس الطائر. نهض من الرماد كما لو أنه يستيقظ، نفض ريشه، وحين فعل ذلك عادت آلاف الرياش إلى وضعها الأصلي. وبتهلل، ربما لأنه أدرك في تلك اللحظة أن دورة طبيعته ستتكرر إلى أبد الآبدين، فتح الفينيق جناحيه الضخمين، وباندفاع رشيق وصوت بهيج، حلق في الجو مبتعداً. رآه آدم وحواء يختلط بألوان الغسق ويضيع في الأفق.

ـ ألا تظن أنه سيحدث لنا الشيء نفسه عندما نموت؟

ـ لا أدري يا حواء، لا أدري.

اختفت الشمس. ولاذ الرجل والمرأة بفج بين الصخور، في العراء. لقد حاولا دخول المغارة، غير أن الجدران كانت تشع حرارة وتحرق الجلد عند لمسها. ومن المكان الذي هما فيه كانا يريان وهجاً برتقالياً يأتي من الداخل. جمار. احتضن آدم حواء. كان شعرها يعبق برائحة الدخان. الحيّة خائنة، فكر. إنها ثنائية. صديقة وعدوة. واختلط الأمر عليه.

ـ لم يعد لدينا ما نأكله ـ قالت حواء وهي تنظر إلى شجرتي التين المتفحمتين.

ـ لدي شيء ـ قال آدم.

نهض وذهب لإحضار الأرنب الذي تركه على إحدى الأشجار القريبة. وضعه أمام حواء. انتظر ردّ فعلها. فما كان يراه طعاماً، رأته حيواناً خامداً ودامياً. أطلقت المرأة صرخة وأطبقت عينيها.

ـ أهو ميت يا آدم، أم أنه سيعود إلى الحياة مثل الفينيق؟

ـ لا. إنه ميت.

فتحت عينيها. لمست لحم الحيوان الرخو، فاقد الحركة، وتأملت حدقتي عينيه الكامدتين.

ـ أهذا ما تريديني أن آكله، تريديني أن آكل الموت؟

ـ في هذا الصباح، رأى القط عصفوراً، فقتله وأكله. وبعد ذلك اصطاد قايين أرنباً وأكله أيضاً. وعندما رأيته يصطاد أرنباً آخر انتزعته منه وجئت به كي نأكله نحن. علينا أن نقتل حيوانات أخرى ونأكلها إذا كنا نريد البقاء. لقد قالت لي الحيّة ذلك. لقد أكلت هي فئراناً وغزلاناً. ونحن لا نستطيع أكل التين وحده. لحم الأرنب ليس سيئاً. لقد تذوقته.

ـ وهل تصدق الحيّة يا آدم؟ أتصدق أنه علينا أن نَقتل كي نعيش؟

كانت حواء تنظر إليه غير مصدقة، مرتعبة.

ـ ما أعرفه هو أنني ما إن رأيت الهرّ يأكل العصفور حتى أدركتُ ما يتوجب علينا عمله. هناك أرانب كثيرة يا حواء.

أحنت حواء رأسها، قاطعت يديها وراء رقبتها في حركة يأس.

ـ من هو الآخر؟ من هي الحيّة؟ من هما هذان الكائنان يا آدم؟ ما الذي يريدانه منا؟ أحدهما يخدعنا والآخر يعاقبنا. يزعمان أنهما صديقانا، ولكنهما يتناقضان في ما بينهما. إذا كان أكل تفاحة قد جلب لنا هذا العقاب، فما الذي تظنه سيحدث لنا إذا ما قتلنا من أجل أن نأكل؟ أنا لا أريد أن أقتل يا آدم. وكيف سنعرف ما هو قتل وما هو غير قتل؟ نقتل من أجل الأكل ـ كررت بملامح اشمئزاز وذهول ـ من يمكن أن يفكر في مثل هذا؟!

ـ قلت لكِ إن هناك الكثير من الأرانب. وإلوكيم يصنعها من أجل هذا الهدف.

ـ أؤكد لك أن الأرنب الذي تقتله لا يعنيه في شيء وجود أرانب كثيرة أخرى. وماذا لو أن حيواناً آخر قرر أن نكون أرنبيه؟

ـ علينا أن نعيش ونتعلم يوماً فيوماً. ولا يمكن لي الإجابة على أسئلتك كلها.

ـ لا يتوجب عليك أن تقتل. هذا ما تقوله لي كل ذرة في جسدي. إذا كان الموت عقاباً قاسياً، فلماذا علينا تقديمه إلى آخرين؟ يبدو أنه من الصعب على إلوكيم أن يشعر بما نشعر به، ويظن أنه يعرف ما هو مناسب لنا، أما أنا فأستطيع أن أضع نفسي في موضع الأرنب. يا للمخلوق المسكين. انظر إليه وقد صار مجرد مزقة لحم.

ـ ليس قتلاً لمجرد القتل، وإنما هو قتل من أجل البقاء.

ـ لم يكن الأمر على هذا النحو في الجنة.

ـ أنتِ أردت معرفة الخير والشر. وربما هذا هو الشر. علينا أن نجربه. وإن لم نفعل سنموت.

ـ سنموت على أي حال.

ـ إلوكيم قال إن موعدنا لم يحن بعد.

ـ أنت ترى إذاً أن هذا هو الشر الذي علينا أن نجربه.

ـ أجل.

ـ لكننا حُرَّان يا آدم، ويمكننا الاختيار. وإذا كنت تظن أننا أخطأنا مرة، فلماذا نخطئ من جديد؟ لقد تُركنا وحدنا. والقرار لنا في كيف سنعيش.

نظر إليها آدم مطولاً. قدّر اندفاعها. ولكنها هي من أوصلتهما إلى ذلك المأزق. لم تخف من معرفة الخير والشر وهي تخشى الآن ما عليهما فعله من أجل العيش.

ـ أنتِ من أكلت الثمرة.

ـ أردتُ أن أعرف يا آدم. وقد صرت أعرف الآن أكثر مما كنت أعرفه ونحن في الجنة. ولهذا أطلب منك ألا تقتل.

ـ لو لم نأكل الثمرة، ربما ما كنا سنضطر إلى القتل، ولكننا وحيدان الآن. ولا يمكنني عمل ما تطلبينه. فأنا أعرف أيضاً ما

يتوجب عليّ عمله. وربما لن يكون عليكِ أنتِ أن تقتلي. وربما يكون هذا هو سبب اختلافنا.

ـ ربما يا آدم. ويمكنك أن تعتقد ذلك إذا شئت.

ـ إنني أضخم وأقوى منكِ. وأشعر بأنني مسؤول عن مواصلتنا العيش والبقاء.

ـ وأنا أشعر بأنني مسؤولة عن العناية بكَ. ويبدو أنه عليّ البدء بالعناية بك وحمايتك من نفسك. فنحن لسنا حيوانات يا آدم.

ـ وما أدراك بذلك؟ الكلمات التي نستخدمها هي الشيء الوحيد الذي يميزنا عنها.

ـ والمعرفة.

ـ أعرف أنه لا بد لنا من أن نأكل. والحيوانات تعرف ذلك أيضاً. وهذا لا يضايق أحداً سواكِ.

ـ يضايقني الاضطرار إلى القتل.

ـ هذا ما هو مقدّر. ولم نقدّره نحن.

ـ عليك أن تتصلب لتفعل ذلك. أن تتعلم القسوة.

ـ ربما يكون شراً يا حواء، ولكن الشر جزء من المعرفة أيضاً.

تذكرت حواء بحنين نور **الجنة** وسكينتها. تذكرت طمأنينة نفسها، وخواطر ذهنها البسيطة والبعيدة عن المفاجآت، وعن البكاء، والغم والغضب. ذلك الطفو الخفيف كورقة على سطح الماء.

ـ لو لم نأكل الثمرة ـ قالت وهي تنظر إلى عينيه ـ لما قيض لي أن أتذوق التين أو المحار. ولما كنتُ رأيت الفينيق ينبعث من رماده. ولما عرفتُ الليل. ولما أدركت الشعور بأنني وحيدة عندما تذهب، ولما شعرت بأن جسدي شديد البرودة حتى وأنا وسط الحريق قد امتلأ بالحرارة فور سماعك تناديني. وكنت سأواصل رؤيتك عارياً دون أن

يربكني ذلك. ولما عرفت قط كم يروقني أن تدخلّ فـيَّ منزلقاً كما السمكة لتختلق البحر.

ـ وما كنتُ أنا سأعرف أنني لا أحب رؤيتك تشعرين بالجوع. ويبدو لي أنه من القسوة رؤيتك تشحبين وعدم فعل شيء للحيلولة دون ذلك. لستُ أنا من قرر أن تكونَ الأمور على هذا النحو يا حواء. إنني أتعلم مما أراه حولي.

لم يقل الرجل شيئاً آخر. وصمتت هي أيضاً. لماذا يفكران بطريقتين مختلفتين؟ ـ تساءلت ـ لمن منهما ستكون الغلبة؟ وفي العراء، بجوار الصخور المحيطة بالمغارة، تكورت إلى جانبه، وبعد ذلك فتحت ساقيها لتمتطي آدم، وكان القمر المتضائل يغطي رأسها، فجعلت الرجل ينسى الجوع والحاجة إلى القتل.

رجعا عند الفجر إلى المغارة. كان الحر الشديد قد تحول إلى عبق لطيف الدفء. وعلى رمل المغارة، كانت تتوقد بخفة بعض الأحجار المشتعلة. كان آدم قد أفلت الأرنب بإهمال. رائحة اللحم على النار أسالت لعابه. فقد اكتسب اللحم بوضعه على النار لوناً ذهبياً، وجعل غرس الأسنان فيه أسهل. فكر في أنه عليه أن يتعلم السيطرة على شدة النار. فهي مثل كل شيء، تتضمن الخير والشر.

وراقبته حواء دون أن تقترب.

في اليوم التالي كانت هي من خرج للاكتشاف. أرادت الذهاب وحدها. لا تبتعدي كثيراً، قال لها، فقد لا تستطيعين العودة. ما الذي يجعله يفكر في أنها غير قادرة على الذهاب والعودة مثلما ذهب هو نفسه وعاد. ابتسمت، وخرجت.

لاحظت أن ضوء الشمس يتسرب ليناً وخفيفاً من خلال سماء

مغطاة بالغيوم. سارت باتجاه النهر مفكرة في البحث عن طريقة للعبور إلى خضرة الضفة الأخرى. لحق بها الكلب عبر مرج الأعشاب الطويلة الصفراء. كان يمضي أمامها متشمماً الأرض، متسبباً بهرب أرانب كانت تندفع راكضة في كل الاتجاهات. لقد كان هناك الكثير منها حقاً. تخيلت قلوبها الصغيرة المذعورة. حلّق باز على ارتفاع منخفض جداً وحمل واحداً منها وارتفع محلقاً في الفضاء. ففكرت، سيقتله. سيأكله. تذكرت رائحة الحيوان. رؤية مخلوقات حية يأكل بعضها بعضاً يثير الاشمئزاز. الدم. أسنان الكلب. ألم الحيوانات الذبيحة. كم هو محزن ذلك. وأين هو الجيد في أن تتغذى الحياة على الموت؟ من الذي قدّر ذلك؟ وما الذي سيفعلانه إذا ما حاول حيوان آخر قتلهما؟ كانت ترفض تقبل أن تكون هذه هي الطريقة الوحيدة لتوفير الغذاء. فالأرض تنتج تيناً وثماراً. وإذا كانت تغذي الطيور والفيلة، فلا بد لها من تقديم غذاء حلو وحميد. آه، كم تشتاق للبتلات البيضاء التي كانت تأكلها في الجنة!

وصلت إلى النهر. توقفت لتتأمله. تخيلت عيناً عملاقة، بعيداً جداً من هناك، تبكي ماء شفافاً. كان النهر يمضي بسرعة كبيرة، ومع ذلك لم يكن له هدف آخر سوى التدفق والتدفق. سمعت همهمته. ربما تموت العصافير في النهر وتواصل التغريد فيه. الأحجار الصامتة البكماء كانت ملساء وناعمة في الماء. النهر يأتي من بعيد جداً. ويختفي عن النظر عند الأفق. فمن أعالي الجبل الذي ألقيا بنفسيهما منه إلى الفضاء، تتذكر أنها رأت خطي ماء طويلين يتلويان فوق المنظر إلى أن يتضاءلا في البعيد. لا بد لهما من مجاراتهما ذات يوم ليريا إلى أين يصلان.

سارت تحت ظل الأشجار مستنشقة بتلذذ رائحة الخضرة. كانت

السناجب والعصافير والحشرات تعج في كل مكان. وكان الكلب يشم. يتوقف ليبول. ومن الضفة قفزت حواء إلى جُزيرة صغيرة في النهر متوازنة على الأحجار التي تبرز من القاع. أما الكلب فسبح. خاضت هي أيضاً في الماء لتبلغ الضفة المقابلة. واستعانت بجريدة نخيل لتقطف ثماراً بدت لها ممتلئة وصالحة للأكل. كان المنظر أكثر خضرة وخصباً في هذه الضفة، وفيه أشجار كثيفة الأغصان والأوراق، ونخيل قصير تتدلى منه قطوف تمر انتزعت من ثمرها مفتونة بلقيتها. ووجدت كذلك آجام أعشاب طويلة تعلوها قنازع مكونة من حبوب صغيرة قاسية تذوقت طعمها. كانت تجول وقد تملكتها طاقة غريبة، كأنها غزالة، تنظر هنا وهناك، ولم تكن تفعل ذلك لمجرد التأمل، وإنما بهدف واضح في أن تجد في الطبيعة المحيطة ما يمكن تحويله ليكون نافعاً لهما. انتزعت أوراقاً طويلة صفراء. وربطت بعضها إلى بعض لتثبت بها حمولتها. جمعت قشوراً، وبذوراً، وأزهاراً، وكانت تتفحص كل شيء، واثقة من أنها محاطة بأسرار ستتمكن من حلّها بالصبر واليقظة. في الليلة السابقة، بينما هي تنظر إلى ريش الفينيق، صنعت في مخيلتها لباساً من الريش لها ولآدم، ولكنها لم تكد تعثر إلا على ريشة هنا أو هناك مبعثرة على الأرض في أماكن متفرقة.

عند عودتها بحمولتها الصغيرة، أحست للحظة بالدوار. ستفقد كل شيء عندما تعبر النهر إلى الجزيرة الصغيرة. لاحظت أن الأخشاب تطفو مع التيار، فجمعت غصنين ثخينين وجافين معاً وثبتتهما بحبل الأوراق الذي معها، وجعلت منها طوفاً صغيراً وضعت غنيمتها فوقه. وبينما هي تفعل ذلك، استلقى الكلب تحت الظلال. وأخيراً تمكنت حواء من الوصول إلى الجانب الآخر وهي ترتجف، ولكنها كانت سعيدة. فقد عرفت أن كل ما فعلته هذا اليوم كان خيراً.

13

كان آدم قد قتل مزيداً من الأرانب وسلخها. وقد حزنت حواء حين عادت ورأت الجلود المفتوحة، أشبه بأشباح متيبسة وممزقة، منشورة تحت الشمس على الصخور. وجدت الرجل نائماً في المغارة، وجهه يجهد للتشبث بالحلم، وبقايا مأدبته على الأرض إلى جانب الموقد الذي تتأجج فيه قطع حطب جافة. رفع القط الرابض بجانبه رأسه لينظر إليها دون مبالاة. واستحوذ الكلب على بعض العظام ومضى لينزوي في أحد أركان المغارة.

فتحت هي حزمة ثمارها وأكلت حبات من التمر والبرتقال.

ـ الأرض في الجانب الآخر من النهر تشبه الجنة. هناك الكثير من الأشجار والثمار. انظر ما وجدته هناك ـ قالت له عندما استيقظ ـ. لن تضطر إلى قتل مزيد من الأرانب.

ـ أرأيتِ كم أحضرتُ منها؟ أشعلت ناراً بحطبة في جانب من المرج وانتظرتُ متأهباً في الجانب الآخر. جاءت الأرانب تعدو. ولو أنكِ كنتِ معي لكان لدينا أرانب أكثر.

كان يبتسم سعيداً وفخوراً.

ـ ولماذا تريد الكثير من الأرانب؟

ـ الجلود تنفعنا في ستر بدنينا، ولن نفتقد الغذاء.

ـ قلت لكَ إن هناك ثماراً وفيرة في الجانب الآخر من النهر.

ـ لا يمكننا الذهاب بعيداً عن هذا المكان يا حواء. علينا

الانتظار على مقربة من الجنة، فقد يندم الآخر ويبدل رأيه. تعالي يا حواء.

نهض وقادها إلى منعطف بين الصخور القريبة في الخارج، وكان قد وضع هناك أرنبين غير مسلوخين فوق صخرة نظيفة ومسطحة.

ـ لقد وضعت هذا القربان للآخر. أريده أن يعرف أننا نشكر تدخله بإرسال الفينيق لإنقاذكِ من النار. لاحظي أنه مازال يحمينا. وربما سيعفو عنا.

ـ حيلولته دون أن نموت هي أمر، وأمر آخر أن يكون مستعداً لتقبل عودتنا.

ـ لاحظي أنكِ أخطأتِ عندما ظننتِ أن أكل الثمرة لن يكون أمراً عظيماً. ويمكن لكِ أن تخطئي من جديد.

ـ وإذا هو لم يأتِ لأخذ الأرنبين؟

ـ سنأخذهما. وسنأتيه بقربان في كل يوم لتليين قلبه.

في تلك الليلة أحست حواء أن النعاس يتأخر في المجيء. فتحت عينيها في الظلام ورأت عيني الهرّ تلمعان دون أن ترمشا والبريق الضارب إلى الحمرة من الجمار التي كان آدم يغذيها بأعشاب وأغصان جافة كيلا تنطفئ. لم تفهم معنى القسوة، غير أنه كان للكلمة مذاق مرّ في فمها. أغمضت عينيها. استطلعت أعماق غمها. حاولت التمييز بين الدم الذي يسيل من حميميتها ودم الأرانب. وفي عينيها، كان البحر يعود للظهور، وكذلك الشاطئ الطويل والصامت الذي ترتل عليه الأمواج نشيدها الأبدي. رأت هيئة فوق الصخور البعيدة. ظنت أنه آدم ومشت متوجهة إليه. فاجأها وجه امرأة أخرى مثلها. وأذهلها أكثر أنها تعرفها وتعرف اسمها. وخلافاً لها،

هي التي يكاد لا يغطي جسدها سوى بعض الجلود اليابسة والممزقة، كانت المرأة مغطاة بريش يتدلى حول جسدها بنعومة. سمعت حواء المرأة الأخرى تكلمها، لكن الريح حملت كلماتها بعيداً. أرادت الاستماع إليها فراحت تقترب محاولة مقاومة الريح التي صارت كثيفة وضاربة إلى البياض. بدأ فمها يمتلئ بملح، ولكنها لم تتراجع. أرادت أن تعرف من هي هذه الشبيهة بها التي ظهرت فجأة في وحدتها. واستطاعت أخيراً الإفلات من الهواء الذي يحتجزها وهوت فوق المرأة. وفي العناق ذاب الوجه الذي كان ينظر إليها. عندما استعادت توازنها وجدت نفسها وحيدة على الشاطئ، تجلس حيث كانت تجلس الأخرى ببدلة الريش، وتنظر إلى البحر.

ـ إلى أين نذهب عندما ننام يا آدم؟ من هم هؤلاء الذين مثلنا ويعيشون في أحلامنا؟ لقد رأيت في الليل واحدة مثلي على الشاطئ. ربما تكون هناك. فلنذهب للبحث عنها.

فقال آدم إنه يحلم بآخرين مثله أيضاً. وهذا لا يعني أنهم موجودون. فالأحلام هي ما يرغبان في أن يرياه.

خرج ليرى إن كان إلوكيم قد أخذ الأرنبين. لم يجد شيئاً حيث تركهما على الأحجار، لكنه رأى نسرين كبيرين يترصدان على الصخرة التي تتوج الجبل الوحيد. سارع إلى جمع الجلود التي تركها لتجف مستنتجاً أن من استولى على القربان لم يكن إلوكيم.

ـ سنحمل القرابين إلى الجنة ـ قال حين رجع.

قدمت إليه برتقالاً وتمراً ليتذوقه. فأكل ببطء، متلذذاً بلبّ الثمار ورحيقها الحلو. وجمعت هي البذور كي يضعها في ما بعد في

الأرض لتتحول إلى أشجار مثلما جرى لثمار التين. جمعا أغصاناً يابسة لتأجيج النار. وحمل آدم على كتفه حزمة أرانب مذبوحة وانطلقا سائرين باتجاه الجنة.

كان الجو حاراً. وفي البعيد، كانت السماء رمادية، يملؤها دخان، كما لو أن النصف الآخر من الأرض، النصف الذي لا يريانه، يشتعل. تذكرا رؤى من أيامهما الأولى: اضطرابات وبروق كانا قد رأياها دون قلق. لكن مؤشرات الكارثة والزمجرات التي تجعل الأرض تهتز تحت أقدامهما أخافتهما الآن. التصقت حواء بخاصرة آدم. ماذا يحدث في البعيد؟ سألته. كانت في شك حول إذا ما كانا سيعرفان ما الذي يتضمنه البعد. ضمها آدم إليه. وكانت هي أصغر حجماً منه، وجسدها أشد حساسية. فكان يتساءل عن السبب. وكان يتساءل إذا ما كانت محقة في تفكيرها بأنها موجودة معه لحمايته من نفسه. كثيراً ما يخشى تركها وحيدة. يخشى طريقتها في الحلم، نأيها عنه وهي بجانبه. تفاجئه عيناها اللتان تريان إشارات لا يلمحها هو، وبشرتها التي تحدس ما سيحدث، مثل حاسة شم الكلب والهرّ. وبينما هي نائمة في ليالٍ كثيرة، كان يشعر برغبة في إيقاظها وإلحاق الأذى بها. لم يكن قادراً على تجنب الشعور بالضغينة من طريقتها الخاصة، خلافاً له، في تواصلها مع الأرض، كأنها شجرة بلا جذور. وكان يُذهله أنها تكاد لا تندم على أكلها الثمرة. بل تصر على أنها لم تكن هي، وإنما الآخر هو من قدَّر ذلك، وترفض أن تتقبل تحمّلها جزءاً من الذنب، وخطورة فضولها المندفع. يمكن لها أن تتسبب لهما بالمخاطر إذا ما واصلت الإلحاح على الابتعاد عن الجنة متذرعة بأنهما لن يعودا إليها أبداً. أما هو فلم يستسلم لتقبل ذلك. وأكبر من خوفه من الكوارث والمجهول، كان خوفه من

نفسه، مما هو مستعد للإقدام عليه من أجل الحفاظ على البقاء في أرض معادية. فهو يخاف الجوع والقسوة التي قتل بها الأرانب واحداً فواحداً بتهشيم رؤوسها بحجر. لابد أن يكون قاسياً ليقدم على القتل. وهي ليست مخطئة بذلك.

كانا يعرفان عن ظهر قلب الطريق إلى الجنة، ويمكن لهما تأجيج ذكراها في أعماقهما بينما خطواتهما تتقدم عبر مرج قمح ينمو عالياً وذهبياً، دون أن يكونا قد تصورا بعد الخبز الذي تخبئه تلك الحبوب.

كان الدخان البعيد الذي تدفعه الريح يجعل ضوء النهار كامداً، ويضبب محيط المشهد الطبيعي. ومثلما يحدث لهما كلما اقتربا من الجنة، كان الأسى يتغلغل من أقدامهما ويصعد في جسديهما كنبتة متسلقة. وفي ذاكرتيهما، كان الحنين يزيد من حدة ألوان ووزن وعبق ذكرياتهما.

وكان آدم في هذه المرة هو أول من لاحظ التبدلات. فقد كانت حواء تمشي مطرقة وتفكيرها مركّز على الاشمئزاز الذي تُحدثه رائحة الأرانب الميتة. حثتها رنة صوته على رفع رأسها.

ـ إنها تمحي يا حواء!، إنها تمحي! ـ هتف مغموماً.

نظرت حواء. وفكرت في أنها ستنهار وهي تضيف إلى توعك جسمها المفاجأة التي تشهدها عيناها. ترنحت قليلاً. سارع آدم إلى إسنادها. وبينما هي مستندة إليه رأت حزمة نور عريضة تنغلق فيها الهوة وتلتحم الأرض من جديد، كما لو أن قوة هائلة تمتصها. ولكن كل ما في الحديقة أخذ في الصعود متحللاً في بخار متلألئ كأن غلياناً خفياً يصعد من أعماق الأرض ويبخر الأشجار، وأزهار

الأوركيدا ، والنباتات المتسلقة. وبتحول النباتات إلى ظلال متطاولة، تمتد باتجاه السماء في حزم خضرة شاقولية تتلألأ فيها تلونات من الأحمر والأزرق والبنفسجي والأصفر، بدا أن الحديقة تتحول فجأة إلى ما يشبه قوس قزح مختلط. كانت جذوع الأشجار والشجيرات، وهي لا تزال قريبة من الأرض، تحتفظ بهيئتها ، غير أن الفروع والأوراق شجرة الحياة الوارفة ، وشجرة معرفة الخير والشر القاتمة، وكذلك أوراق وألوان أكثر الأشجار ارتفاعاً ، كانت تنفصل عن الأرض مولدة ما يشبه مطراً معكوساً يصعد متأرجحاً ورجراجاً ، وفيه كل تدرجات الأخضر؛ كان المشهد أشبه برؤية صورة بركة يقتلعها أحدهم من السماء بعذوبة وتمهل.

أغمضت حواء عينيها وأعادت فتحهما لتتأكد من أن الرؤيا ليست بسبب إنهاكها. لم تكن تعرف كلمة «وداعاً»، لكنها أحست بها. وفكرت في أن الموت الذي وعدا به سيكون على هذا النحو. سيذوب المشهد والألوان، وينتهي مكان الذكريات الأصلي، ويظل المرء أعزل، خامداً، وحيداً ، يرى بعجز تلاشي ما كان أو ما يمكن أن يكون قد كان.

أحست بالغضب حيال ذلك العمل بالغ القسوة.

ومع أن الوقت كان قد حان كما يبدو لاختفاء الجنة، وتقبل الواقع الذي خُلقا من أجله وعليهما العيش فيه، فقد أحست، وسط استيائها ، بوضوح تفكير إلوكيم يمتد في أعماقها: فهما ليسا البداية، وإنما النهاية المكتملة التي أراد رؤيتها قبل أن يتحمس لمنحهما الحرية، هذا ما قالته لنفسها. وذات يوم ستنطلق ذريتهما في العودة إلى الفردوس. رأت حواء عقدة بطنها تنفك، وتخرج منها ، حلقة

فحلقة، أناس أجلاف يشقون طريقهم متغلبين على عقبة بعد أخرى، وحاملين منها مشهداً محفوراً في ذاكرتهم، ويحاولون العودة إلى ضياء الجنة الناعم. تفهمت الضيق والأمل اللذين تثيرهما فيها رؤية الصور الحاشدة المختلطة التي لم تكن قادرة على فك رموزها. كانت قد تخيلت بحث ذريتها بالتلمس، والطريق الدائري الذي عليهم أن يسلكوه حتى يلمحوا ظل الأشجار التي تنشقت تحتها أول أنفاسها. رغبت في أن تتمكن من أن تحتفظ لنفسها ولآدم بالجزء الصغير الذي يشير إليها إلى الأبد بإصبع الاتهام. وأدركت أن إعلان براءتها لن يفيدها في شيء. فخطيئتها هي جزء من خطة إلوكيم والحيّة.

عادت إلى نفسها. وكان آدم يهزها.

ـ لقد كنتِ على حق ـ أجهش الرجل بالبكاء ـ. إنه يدمرها. لن نتمكن من الرجوع أبداً لنأكل من شجرة الحياة.

احتضن الرجل خصرها منتحباً، متفجعاً. فقد كان يمني النفس بيقين عودتهما إلى الجنة. وبعد أن قَتَل الآن، صار الموت يرعبه. وصارت لهفته تتعاظم في كل ليلة. يتلمس نفسه عند الاستيقاظ، يملأ رئتيه ليتأكد من الهواء، من رائحة التراب، من وجود حواء إلى جانبه. يحمد الضوء، ماء عينيه، متانة جلده، عضلاته، عظامه، وحتى الوظائف البهيمية التي كانت تثير اشمئزازه في أول الأمر. لقد أجبره إلوكيم على رؤية نهاية بدايته. فكما تحللت أوراق الشجر ستتحلل حياته، وحياة حواء، بينما البحر، أو النهر، أو النار، أو الفينيق، ستحتفظ جميعها بعيونها.

لم يحتاجا إلى توافق مسبق ليعرفا أنهما سينتظران هناك إلى أن تختفي الجنة تماماً. ومذهولين حيال المشهد، وقفا وسط بعض

الصخور، ينوسان بدهشة الذهول. كانت الأحزمة الملونة تترنح مع الريح متفككة في خطوط شاقولية متبدلة الألوان؛ ومن بين قمم الأشجار، كانت أسراب طيور تحلق عالياً في السماء وتتفرق في كل الاتجاهات. وانطلق ذكر الفينيق وأنثاه محلقين باتجاه الشمس. وفي البعيد، اشتعلت أجنحتهما الحمراء والذهبية المتلألئة والعظيمة وملأت الجو بألسنة اللهب. أحست حواء بوضوح بأن الزمن قد توقف. لم تدر إذا ما كان كل شيء يحدث بسرعة دوارية، بينما هما يحبسان أنفاسهما ومثلهما كل ما يحيط بهما. حتى الحشرات التي اجتذبتها الأرانب الميتة بدت كأنها تطفو في الهواء دون أن تتحرك، وحتى حركات آدم الذي كان يهش الحشرات عنه بحزمة من القمح، بدت لها أنها تتباطأ بازدياد.

ـ أوتظنين يا حواء أننا سنتمكن من الدخول مرة أخرى؟ لقد انغلقت البداية.

ـ لم يكد يبقى من شجرة الحياة سوى الجذور. إلوكيم يعرف أننا لن نتمكن من أكل ثمرها وعيش حياة أبدية ـ أجابته.

ـ لا أريد أن أموت.

ـ ما الذي فعلَته الأرانب عندما قتلتها؟

ـ قاومت، ولكنها استسلمت بعد ذلك.

ـ ربما يكون هذا هو كل شيء: المقاومة والاستسلام.

ـ وهل ستكون هناك بعد ذلك جنة أخرى؟

ـ ما الذي سنفعله فيها بعد أن اكتسبنا معرفة الخير والشر؟

ـ لا أدري يا حواء. لا أدري. هل نحاول الآن العودة إلى الدخول؟ أريد أن أدخل.

اقتربا بحذر. كانا خائفين من أن تلاحقهما سياط النار. لم

يكن قد بقي من الحديقة سوى خطوط متصلبة. لم يوقفهما شيء. وفي أثناء سيرهما كانا يمران بأشباح الأشجار والنباتات. وكانت بعض الروائح لا تزال تعبق في الجو، بل وأصداء تغريد بعض الطيور. وكان اللون، كما الزبد، يلتصق للحظات ببشرتهما. كانت الجنة أيضاً تودعهما بلعق بدنيهما مثلما يفعل كلب.

في المكان الذي يتذكر آدم أنه استيقظ فيه ووجد حواء إلى جانبه، وجد ثلاث نبتات مازالت جذورها ملتصقة بالتراب. انتزعها بحذر ليأخذها ويزرعها مفكراً في أنه سيتمكن، تحت ظلها، من الاحتفاظ بوهم أنه في الفردوس من جديد.

رجعا إلى الوسط، إلى موقع شجرتي الحياة والمعرفة. كانت أحزمة الألوان ترتفع عالياً فوق رأسيهما مشكلة حزمة كثيفة من أنوار خضراء، فاتحة وقاتمة. جميل، قالت حواء. الجمال. هكذا يسمى هذا. وابتهجت لأنها وجدت الكلمة الدقيقة. كانت قد بحثت عنها أكثر من مرة في عالم منفاها الذي كان يفتنها، شيئاً فشيئاً، بشفقه الحاد، بسهوله وأنهاره. الجمال يظهر إذا ما عرفت العين كيف تتعرف إليه. وربما يكون موجوداً حتى في الموت نفسه. وربما لا يكون الموت على ذلك القدر من السوء. هزت رأسها، نظرت إلى يديها. كان الشعر والأظفار قد نمت. كم ستدوم حياتيهما خارج زمن الجنة السرمدي؟

14

قفلا راجعين إلى المغارة ببطء ودون حماسة. كان قد انقضى زمن طويل منذ لم يعد دخول الجنة متاحاً لهما. ولكنهما كانا يعرفان مكانها. ويمكن لهما رؤيتها ولو من بعيد. ومعرفة ذلك كان عزاء غريباً لهما. يحدد نقطة انطلاقهما، أصلهما. أما وقد اختفت الجنة، فقد صارا تحت رحمة الصور المحفوظة، والذكريات التي ستختلط مع مرور الزمن بالأحلام.

كان آدم يمشي في المقدمة. وتمضي حواء متخلفة عنه، مستغرقة في تأملاتها. تذكرت مرة أخرى كلمات الحيّة: «إنه يضجر، يخلق أكواناً ثم ينساها.»

وما كادت تتذكرها حتى سمعت صوتها الصافر يناديها. كانت الحيّة تثير سحابة صغيرة من الغبار وهي تزحف مسرعة لتصل إلى جانبها.

ـ لم يأخذكِ معه، هل هجركِ أنت أيضاً؟ ـ سألتها حواء.

ـ يريد البقاء وحيداً. أظن أنه حزين. ولكنه هو نفسه المسؤول. لقد خلق سرابه. انظري كيف خلقكما على صورته وشبهه، ولكنه لم يجرؤ على منحكما حرية أكبر من معرفة حدودكما؛ وإن يكن عليّ أن أعترف بأنني لم أره قط يمنح سوى قلة من مخلوقاته، باستثنائي أنا، مثل هذا القدر من سلطاته. فالأرض صارت لكما الآن. يمكنكما إعادة خلقها، وتحديد الخير والشر فيها مثلما يحلو لكما.

ـ مثلما يحلو لنا؟

ـ هو ليس هنا. ولن يعيش يوماً فيوماً ما تعيشانه، ولن يظل يهمس لكما بما تفعلانه طوال الوقت.

استغرقت حواء في التفكير.

ـ سيكون علينا أن نتعلم معرفة الخير والشر. سنأكل ثمار الشجر.

ـ نعم.

ـ وأكل الحيوانات، وقتلها، أهو خير أم شر؟

ـ وهل شعور آدم بالجوع خير أم شر؟ ـ قالت الحيّة ساخرة.

ـ يمكن له أن يأكل أشياء أخرى.

ـ هو يرى أنه من غير المناسب الاقتصار على أكل الثمار والجوز فقط. فهي لا تُشبع جوعه.

ـ الحيوانات الأخرى تَقتل أيضاً. الهرُّ والكلب يقتلان.

ـ وهما لا يعرفان شيئاً. الخير والشر هما الحدان الأقصيان، وهناك كثير من المستويات في ما بينهما.

ـ إنكِ تبلبلينني.

ـ الأمر مختلط. إنه البحث الذي عليكِ السعي إليه.

ـ القتل من أجل الأكل ليس خيراً في نظري.

ـ لا تقدمي عليه. أقنعي آدم.

ـ لقد حاولت، ولكنه مصر.

ـ أصري أنتِ.

ـ لا جدوى. فالجوع مزعج وموعده دقيق، مثل الشمس والقمر.

ـ تنازلي إذاً. ولا تحكمي عليه.

ـ سيكون لذلك نتائجه.

ـ وأنت قررت الأكل من الشجرة. وكان لقرارك نتائجه أيضاً.

اذهبي الآن. فقد تخلفتِ كثيراً. آدم يبحث عنكِ. إنه يقلق حين تغيبين عن نظره.

عند العودة إلى المغارة، رقدت حواء في نوم ثقيل استمر أياماً طويلة. وفي عالمها الذي بلا ماض وبلا ذكريات تقريباً، كانت أحلامها تتكرر دون أن تكون هي نفسها بأي حال: إلوكيم، الحيّة، الفينيق، الأرانب، البرتقال، التمر، البحر، الموت، الأكل واندماج أحدهما في الآخر وهما عاريان. لم يشأ آدم أن يلتصق نعاسها الكئيب بجلده. فكان يتركها نائمة ويشغل نفسه. خرج إلى ضفة النهر بحثاً عن نباتات طرية ذات سوق نحيلة وطرية. وبأشواك إحدى النباتات أحدث ثقوباً في جلود الأرانب المتيبسة وأدخل الألياف النباتية من جانب إلى آخر إلى أن صنع لباساً يقيه من الآلام الشديدة التي يشعر بها كلما ارتطمت أعضاؤه الحساسة بشيء. ومن أجل تطرية الجلود، نقعها في الوحل عدة أيام. ولاحظ أنه كلما كان الوحل أكثر اتساخاً، تكتسب الجلود طراوة أكبر. ومن أشد الجلود نعومة خاط لحواء شيئاً يغطي كتفيها وصدرها وعضوها الجنسي. اصطاد مزيداً من الأرانب، واصطاد طيور حجل أيضاً. وتوغل في النهر ليمسك أسماكاً، ولكنها كانت تنزلق من بين يديه. التقط بيوضاً من أعشاش الطيور. سار مع مجرى النهر، وعبر من خلال الجزيرة الصغيرة إلى الضفة الأخرى واستطلع الغابة التي عثرت فيها حواء على البرتقال والتمر. لم تكن المرأة تكاد تأكل. وكانت تحلم بصوت عالٍ وتتقيأ كل ما يحثها على أكله.

جلبت النار ورائحة اللحم حيوانات أخرى. وفي الليل، كان الكلب ينبح، والرجل يسمع في الخارج زمجرات وهمهمات متوعدة.

لم تشأ حواء رؤية ذلك، ولكن الحيوانات التي تُشبع جوعها بأكل بعضها بعضاً كانت كثيرة. بحث آدم عن بعض الأحجار وشذبها، ثم حفر بها الأرض ووضع عند مدخل المغارة عدة صفوف من الأوتاد للحيلولة دون دخول ضيوف غير مرغوب فيهم. كان يذهله أن يعثر في داخله على أجوبة عن الألغاز التي تواجهه بها الحاجة. ربط الأحجار الحادة إلى العصي الطويلة ليزيد من فعاليتها، وحاول اصطياد ظبيين. طاردهما مع قايين، لكنهما تفوقا عليه في سرعة الجري.

ظهر القمر المكتمل مرة أخرى في الليل، لكن حواء لم تنزف.

ـ إن جسدي يتبدل يا آدم. انظر إلى ثديي. إذا ما ضغطت عليهما يخرج من حلمتيهما سائل أبيض. وانظر كيف صارا كبيرين وثقيلين. وأشعر بنعاس شديد، وما آكله يتعفن في داخلي.

كان آدم يتهرب من الحديث في هذا الأمر معها. يتظاهر بأنه لا يرى شيئاً مما تشير إليه. فما يراه يخيفه ولا يجد طريقة للتعبير عنه.

ـ أنتِ تنطفئين لأنك تنامين كثيراً. اخرجي معي. سينفعك النزول إلى النهر. سنحاول الإمساك بسمكة، أو نرجع مرة أخرى إلى البحر للبحث عن أصداف.

أراها اللباس الذي خاطه لها. فنهضت. كان اللباس وسخاً. تنبعث منه رائحة. والفرو متشابك. تذكرت لحم الماء الذي في القواقع وأحست بالجوع. وكان هو قد حافظ على إبقاء النار مشتعلة. فكرت في أنه قد تبدل أيضاً. فهو لم يعد يشكو ويتحسر، وتخلى عن الآمال. فبغياب خيار الجنة، لجأ إلى مهارة يديه وإلى الاستعانة ببديهته.

ـ لقد كنتَ مشغولاً جداً ـ قالت مبتسمة.

ـ ذهبتُ إلى الجانب الآخر من النهر. يمكننا الذهاب معاً إذا رغبتِ.
ـ أريد الدخول في مياه النهر، لكنني أفضل الذهاب إلى البحر.

غذى هو النار. دس الأحجار التي شذبها في ما يشبه كيساً صنعه من أحد الجلود. وقال إن بعض الأحجار جيدة للتقطيع. وانطلقا في الطريق. لم يكن آدم يعرف كيف يخبرها كم من الوقت ظلت نائمة. فقال لها إنه أمضى لياليَ كثيرة ينتظر عودتها من حيث كانت. وفي أثناء ذلك كان الهواء قد برد، وكانت أوراق الشجر تتساقط على الأرض صفراء ويابسة. ربما يختلط كل ما يرونه فجأة ويتلاشى كما الجنة. كان المشهد يبدو متحللاً حقاً. الخضرة تشحب، وضوء الشمس يسقط عليهما خفيفاً ووديعاً.

ـ ما الذي تفعله الحيوانات؟ هل رأيتها؟

ـ من بعيد. إنها تقترب في الليل فقط. وعندئذ أسمعها تتنفس خارج المغارة. أسمعها ولكنني لا أفهم ما تقوله.

ـ وهل تخيفك؟

ـ أخشى أن تفكر في أكلي، مثلما أفكر أنا في أكلها. لو أنني أستطيع الإمساك بحيوان أكبر، فلن اضطر إلى الذهاب لاصطياد الأرانب والحجل كل يوم. وقد صرت أجد صعوبة في ذلك، لأن الحيوانات صارت تخمن الخدع التي استخدمها للإمساك بها.

ـ لا أدري كيف تفعل ذلك. أيروقك الإحساس بأنك أقوى وأذكى؟

ـ الحقيقة أنني أحزرُ ما عليّ فعله وهذا يدهشني. أواجه صعوبة، وبعد التفكير لحظة في الأمر أعرف فجأة كيف أحلها. أرى احتمالات، فأجربها ويكون أحدها صالحاً على الدوام.

ـ ما يحركك هو شيء أكثر من القتل إذاً.

ـ قتل! ليست هذه هي المسألة. بل البقاء. إنني أصغر من حيوانات كثيرة، ولكنني أتفوق عليها لأنني أدرك تحركاتها مسبقاً. أما هي بالمقابل فتفتقر إلى المخيلة. وأظن أن هذا، فضلاً عن الكلام، هو ما يميزنا عنها. وكذلك الحزن يا حواء. إنني أحزن عندما أتذكر الحيوانات وهي ترافقني في الجنة، بينما أنا لا أفكر الآن إلا في أكلها. إنكِ تسيئين الظن إن كنت تحسبين أنني لا أجد صعوبة في ذلك.

ـ البرد يزداد خارج المغارة يا آدم. أتعتقد أن الشمس تنطفئ ؟

ـ أظن أن العالم صار حزيناً بعد اختفاء الجنة. عسى ألا تنطفئ الشمس يا حواء. علينا أن نقدم مزيداً من القرابين لإلوكيم كي يرأف بنا.

وصلا إلى النهر. كانت خضرة النباتات على الضفاف لا تزال تحتفظ بنضارتها. وكان الماء يجري أشد قتامة وبرودة. جلست حواء على العشب وراحت تقضمه. تقضم، تأكل، وعما قريب ستذعن هي أيضاً للحاجة، للجوع. وستتوقف عن محاكمة آدم، مثلما نصحتها الحيّة. ما هو الأسوأ، الجوع أم الموت؟ كانت عظامها تطفو في جسدها، وقد صارت الآن مرئية تحت الجلد. يمكن رؤية أقواس أضلاعها، عقد وركيها وركبتيها. بطنها وحده هو الذي ينتفخ. لم يبق لها إلا الاستسلام لأن تعيش مثل الحيوانات الأخرى التي يأكل بعضها بعضاً. ومع ذلك، هناك حيوانات كثيرة ترعى وحسب. أما هي فلا تستطيع الاقتصار على أكل العشب وحده. فمعدتها لا تتقبله. والقيء الأخضر مرّ ومحتم بعد أكل السوق والأزهار التي يجلبها لها آدم، لأنها ما يرى الغزلان والخراف تأكله. نهضت واقتربت من الماء.

تقدمت ببطء في التيار المتدفق. كانت تقاطع ذراعيها على صدرها كابحة أنفاسها وهي تغوص في الماء الجليدي. كان الإحساس مؤلماً بحدة ولكنه ممتع في آن واحد. انكمش جسدها على نفسه، لكنه استفاق أيضاً، وتدفق الدم بسرعة أكبر. دفعت نفسها بقدميها ويديها، سبحت قليلاً. وكان شعرها الطويل يطفو حولها. اقتربت سمكة فضية وراحت تتحرك بين العشب الأسود. تدخل وتخرج كما لو أن ذلك الشعر نبتة مائية. ولحقت بالسمكة الصغيرة أسماك أخرى. وفجأة رأت حواء نفسها محاطة بحشد أسماك لامعة تقترب منها دون خوف وتلامس بشرتها. ودون أن تفكر في الأمر رفعت يدها ووضعتها على ظهر إحدى أكبر الأسماك. سمحت لها السمكة بذلك، وبعد أن سبحت دائرة حولها، رجعت لتتلقى مزيداً من المداعبة. جربت حواء إمساك واحدة منها، فظلت السمكة هادئة بين أصابعها. كانت تقدم نفسها إليها. تريدها أن تمسك بها. رفعت بصرها ورأت آدم على الضفة يومئ لها مشجعاً إياها على إمساك الأسماك ورميها إليه خارج الماء.

ثبتت أكبرها بإمساكها من منتصفها. وبحركة سريعة رمت بها باتجاه آدم، متحاشية التفكير، والإحساس برعشة حياة تلك المخلوقة. واصلت الأسماك ملامستها كما لو أنها تريد منها أن تفعل بها الشيء ذاته. تناولت سمكة أخرى ورمت بها إلى آدم. وكررت الحركة نفسها أربع أو خمس مرات. كانت ترتجف من البرد، ومن تأثرها بطقس الاستسلام الصامت والوديع الذي تنصاع به الأسماك كما لو أنها تعرف أن المرأة بحاجة إليها.

كان آدم قد تعلم أسرار النار. جمع أغصاناً ثم فرك حجرين لوقت طويل إلى أن طفرت الشرارة الصغيرة وأشعلت النار.

نظرت حواء إلى الأسماك الخمس الميتة. رأت عيونها المفتوحة.

حملت واحدة منها وطلبت منها المغفرة. وبعد ذلك، بحركة آلية، راحت تنتزع عنها الحراشف بأظفارها التي نمت طويلة وحادة، وتقدمها إلى آدم.

أكلت اللحم الأبيض بعينين مغمضتين. وكان سلساً ولذيذاً مثل بتلات الفردوس.

15

استعادت حواء قواها ببطء. ومن بعض الفطور المتشابكة التي تنمو بين الخضرة الكثيفة على ضفاف النهر توصلت إلى فكرة ربط نباتات ليفية إلى بعضها البعض وصنع شبكة لاصطياد الأسماك. وبينما هما يأكلانها، تحاول عدم تذكر حركاتها الرشيقة وهي تسبح مع التيار. وكيلا تشعر بالذنب، أقنعت نفسها بأن مخلوقات الماء لا تعاني الموت نفسه الذي تعانيه مخلوقات اليابسة. تصورت أنها تتحول من حالة إلى أخرى بالوداعة نفسها التي تُقضي بها حياتها طافية وسابحة بصمت. وكانت ترى الأسماك التي تأكلها في أحلامها تتحرك في معدتها، في المخبأ المكور الذي ينمو في بطنها يوماً بعد يوم.

كانت تريد العودة إلى البحر. فقد استحوذت على ذهنها ذكرى المحار، وفكرة العثور على المرأة التي رأتها في أحلامها، وخوار الأمواج المكتوم، والرغبة في أن تجول وحيدة دون مرافقة الرجل. انتظرت خروج آدم ذات صباح وبدأت المسير.

راقها ألا يكون معها شيء آخر سوى أفكارها. نزلت من المغارة ونظرت إلى الجبل الذي يتعالى فوقها صخرياً ووعراً حتى القمة، وفيه الشجيرات التي مازالت تتذكر أن أشواكها جرحت قدميها. وبينما هي تنزل لمحت تحتها في السهل قطيع حيوانات صغيرة طويلة الرقاب وذات قرون صغيرة في رؤوسها. وفكرت: ماعز. لقد تشتتت حيوانات

الحديقة. وقد قال لها آدم إنه رأى فيلة وزرافات وحمير وحش تمضي وتختفي وراء الأفق كما لو أن أحداً قد أخبرها، أخيراً، بالمكان الذي عليها الذهاب إليه. بعض الحيوانات تختفي وأخرى تعود من هروب الأيام الأولى. بعضها تظهر للعيان، وأخرى تكمن متوارية مثل آدم، تصطاد ما هو أصغر أو أقل شراسة منها. فكرت في الضباع ولكنها استبعدتها من ذهنها كيلا ترتعب. وفي أقصى السهل كانت الجبال تظهر واضحة في النهار المعتدل. وبديعة تبدو الخضرة المتراكمة على ضفاف النهر. ومن أجل الوصول إلى البحر عليها أن تجتاز منخفضاً تغطيه الغابات في الجانب الآخر من النهر، وصعود بعض الهضاب، ثم السير بعد ذلك في أرض منبسطة ومقفرة تنمو فيها مجموعات من أشجار النخيل. وإذا ما حالفها الحظ، ستتمكن من العودة إلى المغارة عند الغروب.

سارت نحو الأرض الخلاء عبر السفح، بالالتفاف حول الجبل، حتى توغلت في الغابة. كانت الأرض هناك تنحدر بشدة. حاولت ألا تضيع عن بصرها الهضبة التي في الجانب الآخر والتي يمكن رؤية البحر من فوقها، ولكنها سرعان ما وجدت نفسها محاطة بجذوع سامقة وأغصان وأوراق متشابكة. وخلافاً للجنة المضيئة على الدوام، كان ضوء الشمس في أعماق الغابة يتحول إلى عتمة ظليلة في بعض الأماكن. كانت تنبعث رائحة رطوبة خفيفة، وكان صوت تفتت الأوراق اليابسة يقرقع تحت قدميها فتفزع حشرات وكائنات صغيرة وتبتعد متجنبة إياها. توقفت براحة ودون تعجل لتتأمل أمهات أربع وأربعين وسحالى، وسلحفاة برية ذات درع برتقالية. وتساءلت كم أبدية احتاج إليها إلوكيم ليخلق ذلك كله، وإذا ما كان يهتم بالتفاصيل أم إن الكائنات التي يتخيلها، وفور تصوره لها، تتولى

بنفسها ابتكار أفضل طريقة تناسبها للعيش في مختلف الأمكنة. وفوجئت بأنها لم تسأل عن شيء من هذا وهي في الجنة. وانتبهت إلى الدعة التي كانت تتقبل بها آنذاك كل ما هو موجود، وأنها هي نفسها كانت جزءاً من بهاء لا يسأل عن ذاته.

رأت أنها قد مشت ما يكفي للوصول إلى الهضبة ولكنها كانت لا تزال تنتقل من أمكنة ظليلة إلى أخرى مضيئة، ومن أمكنة مضيئة إلى ظليلة. حاولت تحديد المكان الذي نزلت منه، مقدرةً أنها صارت في منتصف الطريق على الأقل. نظرت في ما حولها. ظنت أنها قد تعرفت على بعض الأشجار من الأوراق المتسلقة التي تنمو على الجذوع، ولكنها انتبهت إلى أن ذلك الإحساس مجرد وهم، وأن بعض الأشجار هو انعكاس للبعض، مثل أحد تلك الأحلام التي تتكرر في دوران لا يتوقف حول الشيء نفسه. قفلت راجعة على خطاها معتقدة أنها ستجد آثارها، ولكنها فقدتها بعد مسافة قصيرة. فقالت لنفسها إنه لم يعد لها إلا أن تقرر السير في اتجاه محدد دون أن تنحرف عنه للخروج من هناك. فالمنخفض ليس فسيحاً جداً ولا بد أن تخرج منه في لحظة ما. مشت دون توقف. وظنت عدة مرات أنها قد اقتربت من نهاية الغابة، ولكن دون أن يتحقق شيء من ذلك. وفكرت غاضبة من نفسها بأنها قد ضاعت. ثم تحول الغضب إلى خوف عندما لاحظت، بعد محاولات متكررة للعودة من حيث جاءت أو السير في اتجاهات مختلفة، أن ضوء النهار آخذ بالانطفاء. كانت تشعر بالجوع والعطش. رأت شجرة عالية وثخينة محملة بثمار صغيرة. قطفت عدداً منها. وضعتها على راحة يدها وتعرفت إليها. إنها ثمار تين. أصغر وأكثر صفرة من ثمار شجرتي المغارة أو أشجار الجنة، ولكنها ثمار تين في نهاية المطاف. جلست عند أصل الشجرة. سأستريح، فكرت،

سأستريح وآكل. ما الذي سيفعله آدم عندما لا يجدها؟ وما الذي ستفعله هي إن لم تتمكن من الخروج من هناك؟ كان الصخب يزداد مع ازدياد شحوب الضوء. زيزان وجداجد تطلق أغانيها المسائية المديدة والحادة. سمعت نقيق الضفادع الخشن وأحست باستيقاظ الفراشات الليلية. ربما سيكون عليها أن تقضي الليل هناك بانتظار اليوم التالي. فإذا لم تكن قد تمكنت من الخروج حتى الآن، فإنها لا تتصور كيف ستتمكن من الخروج وسط الظلام. وفجأة سمعت صخباً كبيراً وأحست باهتزازات في أغصان الشجرة. لقد حضر قطيع من القردة. وكانت القرود تتأرجح على الأغصان، وتجلس عليها بأعداد متزايدة لتأكل الثمار. لاحظت حواء أنها ليست القرود الصغيرة ذات الوجوه الشاحبة والأجساد النحيلة والرشيقة التي اعتادت رؤيتها في جولاتها مع آدم، وكانت تذكرها بالعناكب، ربما بسبب الخطوط التي ترسمها في تأرجحها. لقد كانت هذه القرود كبيرة، لها ظهور عريضة وأذرع ثخينة. ورأت عيونها تلمع، وكانت القرود تنظر إليها أيضاً.

يا للغرابة، فكرت. فهي لا تتذكر أنها رأت مثل هذه الحيوانات في الحديقة.

بعد فترة من الصخب، هدأت القرود وراحت تقترب منها واحداً فواحداً. ونزلت أكثرها جرأة عن الشجرة وأحاطت بها بصمت. وبين حين وآخر كان أحدها يطلق صوتاً حاداً ومتكرراً. ذهلت حواء من وجوهها المعبرة، شبه البشرية، والعيون العذبة التي تنظر بها إليها بفضول. لم تشعر قط بأن حيواناً آخر نظر إليها بمثل تلك النظرات. اقترب منها أحد القرود، وكان أكبرها حجماً وأكثرها سلطة. ابتسمت له دون أن تدري ما الذي عليها فعله. لم تشعر بالخوف، وإنما

بالانبهار لرؤية ما يريده الحيوان. مد القرد ذراعه حتى لمس بيده المجعدة والطويلة شعرها المنسدل على وجهها. وبدأت القرود الأخرى تتقافز وتطلق صرخات قصيرة.

القرد الذي لمسها أمسك بيدها. كان يريد منها أن تصعد معه إلى الشجرة. قالت هي لا ، رفضت بهز رأسها. أتراه ظنها واحدة منهم؟ وحاولت حواء المتفاجئة التواصل معه بالإيماءات، مشيرة إليه أن تلك ليست طريقتها في التحرك في هذه الدنيا. وأنها تستطيع المشي فقط، ولم تجد الطريقة للخروج من ذلك المكان. نظر إليها القرد باهتمام. واستدارت هي كي تريه أنها لا تملك ذيلاً ، وراحت تومئ كي يفهم أنها لا تستطيع الصعود إلى الأشجار. وبعد هنيهة، عاد عدد من القرود إلى تسلق الجذع والاستقرار على الأغصان. ثم انصرفت جميعها في النهاية. كان الظلام قد خيم على الغابة عندما وجدت نفسها وحيدة من جديد. وفي ما بعد ، بينما هي متكورة على نفسها ومستندة إلى الشجرة، مستسلمة لليل، أحست أن هناك من يرميها بثمار تين، ورأت القرد الذي لمسها من قبل يقترب منها. كان يتقافز ويحك رأسه مطلقاً زعقات قصيرة كما لو أنه يريد أن يقول شيئاً. رأته يبتعد عن الشجرة ماشياً بين الأشجار مستنداً إلى ذراعيه وساقيه. كان ينظر إليها ويقوم بحركات وإشارات. وقد احتاجت المرأة لبعض الوقت كي تفهم، ولكنها نهضت ولحقت به.

كان الليل مظلماً تماماً عندما لمحت المغارة على ضوء القمر. وجدت آدم إلى جانب النار. كان مبحوحاً من الصراخ، ومن كثرة ما ناداها. لقد بحث عنها في النهر، وقريباً من الأثر الذي خلفته الحديقة ، وقد رجع لتوه إلى المغارة آملاً أن تكون قد رجعت.

ـ حاولتُ الذهاب إلى البحر. أردتُ رؤيته ـ قالت.

وأخبرته كيف ضلت الطريق وحاولت الرجوع، وحدثته عن لقائها بالقرود.

ـ أحدها دلني على الطريق. أوصلني إلى طرف الغابة. تركني هناك، كما لو أنه قد فهمني. أتظن أنه فهمني يا آدم؟

ـ لا أدري يا امرأة ـ قال آدم وهو يحتضنها.

نام وأذنه مستقرة على بطن حواء، متشبثاً بساقيها، مفكراً في أنه لا يريد فردوساً آخر سوى البقاء ملتصقاً بها، منصتاً إلى ذلك البحر الذي يتعاظم في داخلها ويخيل إليه أنه يسمع فيه غناء الدلافين.

16

كان حواء تخشى أن يُغرقها البحر الذي في داخلها. فمخلوقاته تزداد اضطراباً، وتوجه رفسات إلى جدران بطنها أو تدور تحت أضلاعها. القمر المدور الذي في داخلها لا يتوقف عن النمو. وكان تحركها مع ذلك الثقل مزعجاً أكثر فأكثر. فكانت تتساءل إذا ما كانت ستصبح عاجزة عن الحركة ومحكومة بالبقاء كنبتة مضحكة تتذكر أنها كانت امرأة. لم تكن تدري ما الذي يتحرك في داخلها، ولا إذا ما كانت تلك الحالة عابرة أم نهائية ودائمة. كان خوفها الأكبر أن تتقيأ ذات يوم من الأيام مسخاً بحرياً، جنس كائنات جديداً يأكلها هي وآدم كي يسكن وحده تلك الأرض، حيث يتطلب البقاء كما يبدو شراسة أكبر مما يستطيعانه.

- لقد رأيت حيوانات أخرى منتفخة مثلكِ يا حواء. لستِ الوحيدة. العنزات منتفخة هكذا. وقد رأيتُ ذئبة أيضاً. لا بد أن شيئاً سيخرج من داخلك.

- ستخرج أرانب صغيرة - قالت حواء ضاحكة -. فالأرانب وحدها هي التي تُخرج المزيد من الأرانب. أترانا سنتكاثر يا آدم؟ أيكون انعكاسنا هو ما يُحاك في داخلي. يخيل إليّ أحياناً أنني ممتلئة بماء وأن كل الأسماك التي أكلتها ستخرج وتأكلنا.

- أنا لم أكن صغيراً قط، وأنت لم تكوني أيضاً. وانعكاساً لن يتسع له المكان داخلكِ.

ـ هناك أرانب صغيرة. وهي تنمو وتكبر في ما بعد. وما في داخلي يتحرك.

ـ قد تكون بتلات بيضاء أو أسماكاً يأكلها من يظهر لنا عندما ننام.

ـ وأنت يا آدم، ألا تشعر بشيء؟

ـ أشعر بالقلق يا حواء. أتساءل إن كنا سنفعل ذات يوم شيئاً آخر غير التفكير في كيفية عدم الشعور بالجوع وعدم الموت من البرد. لا أستطيع التفكير في شيء آخر.

في عالم الشتاء الجليدي، كان آدم يضطر إلى التجوال بحثاً عن الطرائد التي تخلفها حيوانات أخرى، وينافس النسور على بقايا الجيف. وكان يفاجأ أحياناً بالعثور بين العظام على قطع كاملة من اللحم. فيتخيل أن الضواري الكبيرة: النمور، والدببة، والأسود، مازالت تحتفظ في صمت ذاكرتها بالرابطة التي كانت تربطه بها في الجنة، وأن تلك هي طريقتها في أن تبين له أنها لم تنس كل شيء. كان يسعد بتلك اللقى، ولكنه كان يبكي أيضاً. ففي الوقت الذي يسيل فيه لعابه مفكراً في الأكل، كان يتحسر. يتذكر الأزمنة التي كان من المحال عليه فيها أن يتخيل عالماً تسكنه مخلوقات يهدد بعضها بعضاً، وتضطرها الحاجة إلى البقاء في انعدام ثقة متبادل. كان يبكي دون حياء بينما هو يأكل. يمزق اللحم، يئن من جوع أيام، يشعر بالتعاسة. يكون حزيناً، ولكنه سعيد في الوقت نفسه لعودته إلى المغارة وإطعام حواء والقط والكلب.

وكانت هي تتأثر حين تراه عائداً. وكان الجوع قد حملها في نهاية المطاف إلى أكل أي شيء يجده. لم تعد تسأل. تضع قطع اللحم

على النار، وتأكل دون أن تلتقط أنفاسها تقريباً. وفي أحيان كثيرة، بينما هي تمضغ، كانت تلعن إلوكيم. كان جسدها الثقيل يحول دون مرافقتها لآدم، وتكتفي بالخروج في الصباح لتجمع أغصاناً يابسة من أجل تغذية النار، وتنهمك بقية النهار في خياطة الجلود التي يتدثران بها.

ومع ذلك، كانت تشعر في الوحدة بأنها على ما يرام. لم تكن تتضايق من البقاء وحدها مادامت واثقة من أنه سيعود، وتفضل ألا تخامرها الشكوك في عودته. وبالرغم من الضباع، كان آدم واثقاً من أنه سيعود. فكانت تقول له: لا تخف، فالضباع قد رحلت. لستُ خائفاً، يقول لها. ولكنكِ أنتِ من لم تشفي من خوفك. كانت حواء تعرف أن خوفها هو الذي يتكلم. فاللقاء مع الضباع احتبس في ذاكرتها الرعب من تبين أن التعايش مع الحيوانات قد انتهى، والحاجة إلى التأكد مما يظنان أنهما عرفاه. وفي أحيان قليلة كان الحزن يثقل عليها وهي في المغارة. كانت تعود مرة بعد أخرى إلى استذكار التجارب المعيشة والأسباب التي دفعتها إلى قضم ثمرة التين. وكانت الرؤى، واليقين الذي آمنت فيه بالتاريخ الذي يُفترض أنها هي بالذات من ستُدشنه، تملؤها بالضيق والغضب من نفسها. صحيح أن المشهد يُذَّكرها أحياناً بجمال الجنة، ولكنه لا يعوضها عن ألم قدمها المجروحة حين تنزف؛ وليس مشابهاً للجنة بما فيه من جوع وعطش وبرد.

كانت الحاجة إلى التخلص من ذلك الضيق هي التي قادتها ذات يوم إلى ابتكار طريقة تمكنها من رؤيته وإخراجه خارجها. ومنذ ذلك الحين، صار يبدو لها أن هناك ما يسوغ حتى الشعور بالحزن.

لاحظت أنه بإمكانها استخدام قطع الحطب السوداء المحروقة

لترسم خطوطاً سوداء على جدران المغارة. بدأت بتلمس التأثير على أحد الجدران الملساء. والخطوط التي كانت خرقاء في البدء، صارت أكثر انسيابية مع مرور الأيام. وبينما كانت ترسم على الجدران صوراً من ذاكرتها، راحت ذراعها تكتسب مزيداً من التدفق والزخم، فتتحمس هي لذلك. وفقدت اليد ترددها الأول وصارت تطير راسمة أشكالاً متنوعة بالفحم. عندئذ عرفت سعادة مختلفة لا تفسير لها، سعادة تشعر معها بأنها أقل وحدة. كل ما كان خفياً في أعماقها خرج ليرافقها. ثم رسمت بعد ذلك أشكالاً أخرى. وهكذا ظهر الغزال المتطلع من بين الأشجار وثور البيسون العظيم حانياً جبهته. ومن فتات الصخور الأحمر الناعم صنعت الشمس. رسمت محيط ضفاف النهر والأحجار التي على جانبيه، وبدا كما لو أن خرير الماء يرن في أذنيها.

وتخيلت آدم كذلك في جولاته الاستطلاعية. فأبرزته في رسومها طويلاً ومتيناً، أكبر وأقوى من أي حيوان يمكن أن يلتقي به. رسمته يجتاز مناظر لطيفة، وينام على فراش الصخور، دون أن يستطيع أي شيء تهديده، واثقة من أن الواقع سيجد الطريقة المناسبة ليبدو مشابهاً لرسومها.

ـ وأنا الذي أمضيت الليل خائفاً من أن تلتهمني الضباع والذئاب ـ قال لها ساخراً ليخفف من الذهول الذي أحدثته فيه رؤيته ظلال الواقع على الجدار.

ومع ذلك، سرعان ما تنبه آدم إلى سلطة الرسوم. فكان ينشرح حين يتخيلها ويعرف أن حواء ترسم عودته. وكان كلما رجع، يروي لحواء تفاصيل جولاته كي تعيشها هي أيضاً برسمها. كانت تدهشه

رؤيتها تحرك يدها برشاقة، وتُخرج من بين أصابعها الخطوط التي ليست غزالاً أو نمراً، ولكنها تبدو مع ذلك أنها تتضمن جوهر الغزال والنمر. وعلى ضوء الموقد، وجد آدم المتعة في رواية جولاته لها. وكثيراً ما كان يستسلم لإغواء إضافة تخيلاته إلى الواقع. وكان يستمتع برؤية عينيها متعلقتين بكلامه. ويشعر كما لو أنه يأخذها معه وأنها تعيش ذلك كله إلى جانبه.

مع اقتراب نهاية الشتاء، توقف الرجل النحيل والضعيف عن الخروج من المغارة. وأمضيا أياماً عديدة دون أن يأكلا شيئاً سوى القش والأعشاب والحشرات. جاء زوجان من الخفافيش للعيش في المغارة. وكان آدم وحواء يشعران بها تطير. ويريانها تنام معلقة ورؤوسها إلى أسفل. فقدت حواء الرغبة في الرسم. ولشدة ما نالهما من الإنهاك في سعيهما إلى البقاء، استسلما للموت.

- لن نخشى الموت بعد اليوم - قالت -. ربما هذا هو سبب سعادة الحيوانات يا آدم، لأنها لا تخشاه.

- ربما لم نكن خالدين قطّ. ربما كنا نجهل أننا سنموت وحسب. وربما أن جهل الموت ذاك هو الفردوس - قال الرجل.

بكت حواء. وقد صارت تبكي الآن بسهولة كبيرة. كانت ترى أن البكاء يخفف من ماء بطنها. احتضنها آدم. لم تعد ذراعاه قادرتين على تطويقها كلها، وصار يخشى الدخول فيها خوفاً من أن يمسك به المخلوق الذي يعيش في بطنها، ولكنه وسدها على صدره. كان النوم راحة كبيرة. وكانت النهارات الرمادية الشاحبة أشبه بالليالي التي يكون فيها القمر بدراً. وكلما ناما أكثر كانا يرغبان في

مزيد من النوم. فلا يكادان ينهضان إلا لشرب الماء والتبول وإراحة أمعائهما. كان آدم يطل من مدخل الكهف ويتساءل إن كانت النجوم رمالاً مضيئة لبحر قاتم في الجانب الآخر من السماء حيث سيغرقان في النهاية.

ومن الحلم الذي كانا يموتان فيه طوال الوقت، أو يتدحرجان في مهاوٍ سحيقة أو يخفقان في محاولتهما العودة إلى الجنة، أيقظهما صخب وابل المطر الذي كان يدخل من فجوات المغارة.

أحست حواء بالهواء الدافئ. فتحت عينيها. نظرت إلى آدم الذي ينام خائر القوى وذراعه على وجهه. تلمست بطنها المنتفخ لتتأكد من أن ما طفح وفاض ليس بحرها الداخلي. جلست على الحجر ورأت الماء الذي يهطل في الخارج بخيوط شفافة لامعة. هزت آدم.

- إنها تمطر. إنها تمطر - هتفت بنبرة احتفالية. وأيقنت أنهما لن يموتا من البرد.

لقد تجاوزا شتاءهما الأول.

17

استحمت هي وآدم تحت المطر. كانا نحيلين. رأيا عظامهما بارزة، وعرضها كل منهما على الآخر وهما يضحكان. غسل الماء البارد غمص عيونهما، وأزاح الغبار ورائحة الزنخ عنهما. نظرت حواء إليه وعرفت أنه يفكر في ما تفكر فيه هي نفسها، متذكرين اللحظة التي عرف فيها أنه كائن، ولحظة استيقاظها هي أيضاً إلى جانبه وتعارفهما رجلاً وامرأة. لم يتحدثا قط عن ذلك، ولكن كانت لهما طريقة في النظر إلى نفسيهما يتعرف فيها كل منهما إلى حضور الذكرى في الآخر. جففا الماء عن بدنيهما تحت الشمس. استعادا الهيئة المنتصبة والنظرة السعيدة التي كانت لهما في بداية وجودهما. تساءل آدم كم يوماً تواصل هطول المطر بينما هما نائمان يحلمان بأنهما يموتان، لأن العالم كان أخضر وزاهياً من جديد. وما كاد وابل المطر يتوقف حتى تجرجرت الغيوم تحملها الرياح، وتلألأت فوقهما السماء بزرقة زخمة وبريق يوم مشمس.

استندت حواء إلى آدم لتجاوز برك الماء التي خلفها المطر كعيون لامعة فوق الأرض. لم يستعد المنظر عافيته من البرد وحسب، بل إن أغصان شجرتي التين الخامدتين والمسودتين من الحريق انبعثتا من جديد بأوراق وارفة ودون أثر من تلك الكارثة. وقد امتلأت الشجرتان بثمار تين كبيرة ومترعة بالرحيق. قطفا منها وراحا يأكلان. كان لها مذاق يومهما الأخير في الجنة، ومذاق لقائهما الحميم الأول أيضاً.

انزاح غضب آدم العابر حين تذكر يد حواء الرقيقة تقدم إليه الثمرة المحرمة. لقد تراجع الحنين اللجوج أمام راحة الشعور بأنهما حيين، ورؤية ألوان العالم تستعيد زخمها.

ساعدها على الصعود إلى مكان من الجبل يمكن لهما منه تأمل العشب الذي ينمو مجدداً في السهل، وأعداد كبيرة من الحيوانات التي ترعى بطمأنينة. أشارت حواء إلى ماعز، وخيول، وغزلان، وظباء، وأغنام. وكانت معها حيوانات أخرى مماثلة لها ولكنها أصغر حجماً، تتقافز وترعى العشب.

ـ عما قريب سيجيء موعدكِ ـ كانت الحيّة ملتفة على فرع شجيرة شوكية.

ـ أنتِ! ـ هتفت حواء.

ـ نمتُ الشتاء كله. نوم طويل. وقت كثير ضائع.

ـ هل سيعود البرد؟

ـ في موعده الدقيق، كما الجوع. ولكن النباتات ستنبعث قبل ذلك، ثم يشتد الحر. أما الشتاء فيأتي بعد سقوط أوراق الشجر.

ـ وما هو موعدي الذي تقولين إنه سيجيء؟

ـ ألا تتكهنين؟

ـ ما الذي سيخرج مني؟

ـ توءم، يا حواء. ذكر وأنثى. ابن وابنة. هكذا تسمى المخلوقات التي ستأتي منك وتكون ذريتك.

ـ ابن.. ابنة! ـ كررت حواء.

ـ متى سيأتيان؟ ـ سأل آدم.

ـ قريباً جداً.

ـ وكيف سيحدث ذلك؟

ـ بألم شديد.

نظرت حواء إلى الحيّة باستياء. مزيد من الألم؟ ألم يكن كافياً رؤية ما عانياه من الجوع والبرد؟

ـ آسفة يا حواء. فكرتُ في أنه عليّ أن أنبهكِ. هذا ما قدره إلوكيم. لا أدري لماذا يميل إلى الألم. ربما لأنه يريد الشعور به. وربما يرى أن ألم الجسد يسهل تحمله.

ـ أتتصورين أنه يتألم؟

ـ أظن أنه لم يخلق شيئاً لا يعرفه.

ـ ربما يتخيله. وربما هذا هو سبب عدم تقديره معاناة الآخرين.

ـ لا تغضبي. فالغضب غير نافع لك. سأنصرف الآن. لم أكن أنوي إفساد ربيعكما.

انسلت الحيّة بجسدها الذهبي الطويل. اندست بين بعض الأحجار واختفت.

أحس آدم أنه دخيل متطفل في بلاء حواء. وجد صعوبة في التفكير بآلام تحت السماء الفسيحة والمشرقة. من الأفضل عدم التفكير في هذا الأمر، قال لحواء. فإذا كان للحيوانات صغارها، فلا مسوغ لأن يكون الأمر أكثر مشقة عليها هي.

ـ أنا لستُ حيواناً يا آدم.

ـ ولهذا السبب بالضبط ـ أشار بنبرة مصالحة ـ، ستفعلين ذلك أفضل منها.

فضّلت حواء عدم التفكير في الألم. نزلا عن سفح الجبل ومشيا ببطء إلى النهر. سارا على الضفة تحت خضرة الأوراق الجديدة اليانعة.

عطسا غبار الطلع الذي يطفو غير مرئي في الهواء. وبين الأعشاب، كانت تطل برؤوسها أزهار برية صفراء وأرجوانية وبرتقالية. وتفوح رائحة الجذور والأرض المشبعة بالماء، وكان الهواء ممتلئاً بخفق أجنحة مفاجئ لفراشات تتنقل بين الآجام. من الذي يستطيع فهم إلوكيم؟ فكر آدم، فتلك الأرض التي نفاهما إليها فيها جنة كانت مخبأة تحت قشرتها. الخضرة التي تكاثرت فجأة ملأت عينيه بالدموع.

ومفعمين ببهجة رؤية وسماع وشم انتعاش حياة الأرض التي حسباها ميتة، انطلقا في طريق العودة إلى المغارة. ومن وراء إحدى الشجيرات أفلتت أنّة حادة. أزاحت حواء الأغصان. وعلى العشب، كانت هناك فرس ملقاة على ظهرها تتلوى من الألم وترفس بقوائمها في الهواء. لاحظت حواء أن بطن الفرس منتفخ مثل بطنها وعضوها التناسلي ملتهب.

- عليّ أن أرى ما الذي تفعله يا آدم. فأنا أظن أن موعدها قد أزف.

اقتربت حواء بحذر. جثت إلى جانبها. تحركت الفرس كأنها تريد النهوض، ولكنها تخلت عن ذلك مستسلمة على الفور. حركت حواء يديها برفق كيلا تُفزعها ومرت بها بلين على بطنها الكبير. كان الجلد المشدود، والمتصلب مثل جلد بطنها عندما ينقبض. وبيدها اليمنى داعبت مقدمة الوجه المتطاول. نظرت إليها الفرس بعينيها الكبيرتين والمذعورتين. وواصلت هي المرور براحة يدها على مقدمة الوجه، وعلى شعر الأذنين المتقاربتين، وكررت الأصوات التي تستخدمها لتهدئة آدم.

تأمل الرجل محيط جسد المرأة الغامض والتكور المرتفع في

بطن الفرس. كانت البهيمة والمرأة تتبادلان النظرات، وكان شعر حواء الطويل يشكل إطاراً لبروفيل وجهها المنحني.

ما الذي تعرفانه ولا أعرفه أنا؟ فكر آدم. وأحس بالإجلال نفسه الذي أحس به حين رأى شجرة الحياة أول مرة.

حبس كلاهما أنفاسه عندما ظهرت قائمتان صغيرتان من عضو الولادة، وبعد صهيل طويل ومتألم قذفت الفرس مهرها الصغير كاملاً، وعلى وصورتها وشاكلتها، ملفوفاً بنسيج أبيض دهني ودامٍ، ظل الحصان الصغير مطروحاً على العشب. ولم يتجرأ أي منهما على لمسه. مرت ساعة، ومزقت الفرس بأسنانها الجراب الذي يلف المهر. حاول الحيوان الصغير النهوض على قوائمه. سقط ونهض عدة مرات إلى أن تمكن من الوقوف. نهضت الفرس وهي تلهث وتنخر، وراحت تلحس وليدها متعرفة عليه.

لمست حواء محيط تكورها. وأفلت الهواء من رئتيها بزفرة راحة وذهول. هكذا هو الأمر، فكرت. لقد كان آدم على حق. إذا كانت الحيوانات قادرة على فعل ذلك، فلا بد أنها ستفعله بصورة أفضل منها.

18

لم تكد حواء تنام في تلك الليلة وهي تتخيل الأبناء الصغار الذين أخبرتها بهم الحيّة. ضحكت بصمت، كيلا توقظ آدم، وهي تفكر كيف أن مخيلتها أولاً، ومخيلته هو بعد ذلك، قد ملأتا بطنها بأسماك ودلافين، وحتى بمسوخ بحرية. قاطعت ذراعيها حول بطنها. فكرت بعضوها الصغير والرطب الذي مثل رخوية بحرية حمراء. ارتعشت. ربما سيتمزق كله. أطبقت عينيها بشدة لتهدئ اضطراب خوفها المفاجئ. لقد نهضت الفرس بعد عملها. وهي أيضاً ستفعل ذلك. رفضت التفكير في الألم. وحاولت أن تتخيل ابنتها وابنها. أيكونان مثلها ومثله؟ أم أنهما سيكونان مختلفين مثل اختلافهما هما عن إلوكيم؟ مرت بيدها على بطنها المشدود والمكور. انتظرت. أحست بالحركة المائية، والخبطات الخفيفة. إنهما هناك، مثلما كانت هي مخبأة في ضلع آدم. ولكنه لن يلد شيئاً آخر بعدها. لماذا هي من عليها أن تلد الآن؟ ألأنها من ستملأ العزلة التي يسكنانها وتعمرها؟ والعيش، أهو امتياز أم عقاب؟ لماذا يجعلها إلوكيم شريكة له في خلقه؟

كيف ستكون تلك المخلوقات الصغيرة؟ ـــ سألت ـــ متى سأعرفها؟ متى سترى؟ ما الذي سيحدث بالضبط؟ كيف ستشعر بمجيئهم؟ كيف ستعرف اليوم الذي سيحدث فيه ذلك؟ وما الذي سيظهر أولاً، القدمان، اليدان، الرأس؟

في اليوم التالي حاصرت آدم بأسئلتها. وما الذي يمكنني قوله، ردّ عليها. فمخيلته تكاد لا تتسع لكل ما يحدث. والتفكير في أن الأبناء سيخرجون مثلما خرج المهر من الفرس يسبب له انقباضاً لا إرادياً في أسفل بطنه. كان يفضل التفكير في أن الأبناء يظهرون ذات صباح إلى جانبهم، مثلما ظهرت هي إلى جانبه. وكانت حواء مقتنعة بأن الأمر لن يحدث على ذلك النحو.

ـ سأتألم. هذا ما قالته الحيّة. ربما ينشق الجلد. ربما ينكسر البطن مثل بيضة. أو ربما سيخرجون من بطني كما الأزهار ـ قالت مبتهجة وهي ترى فزع آدم.

كانت تخرج في الأماسي متعثرة ومتثاقلة. وعلى أغصان شجرة التين وجدت عش زوج من طيور السُّماني. رأتهما يأتيان حاملين بمنقاريهما حشرات وديداناً لإطعام الفراخ التي بلا ريش تقريباً. وبينما هي متوارية وراء إحدى الأشجار رأت خرافاً وثيراناً وماعزاً ووحوشاً ضارية تقود صغارها للتعرف إلى الماء. وكانت تعتقد أن القطعان تتكاثر، وكذلك الحشرات، وتسمع صخب الحياة يتضاعف بجموح. انغلقت على نفسها شيئاً فشيئاً. وكانت تحتفظ بالصمت مفكرة في أن تسمع صوت الكائنات التي تحتلها تعلن لها أن موعدها قد أزف.

خاط الرجل جلود عدة أرانب، وكان يضعها في كل ليلة إلى جانب حواء تحسباً لظهور الوليدين بجوارها.

لم يمض وقت طويل. وكان ذلك عند الفجر. نهضت حواء لتبول، وبينما هي تفعل ذلك سال فيض من الماء على ساقيها. ارتبكت. أتراها أخطأت، وما هو في داخلها في نهاية المطاف ليس إلا بحراً؟ خشيت أن تجد نفسها محاطة بأسماك، ولكنها لم تر على الضوء الخفيف الذي يعكسه الموقد أية سمكة، أو أي مخلوق بحري آخر.

رجعت إلى جانب آدم. لم توقظه إلا بعد قليل.

ـ إنه يؤلمني يا آدم. مثلما أتألم عندما أنزف.

استيقظ الرجل. كان ضباب الفجر يغطي مدخل المغارة. وكانت حواء تمضي من جانب إلى آخر ممسكة أسفل بطنها براحتي يديها.

ـ ماذا سنفعل الآن؟ سأل آدم.

ـ أنا المغارة. ومنها سيخرجون. وأنت عليك أن تكون في الجانب الآخر كيلا يرتطموا بأحجار الأرضية.

ـ أتظنين أنه سيروقهم العيش خارج الجنة؟

ـ لا أظنهم سيحنّون إلى الجنة لأنهم لم يعرفوها ـ قالت دون أن تتوقف عن المشي.

ـ ألا ترين أنهم سيتذكرون كل ما نتذكره نحن؟ فهم انعكاس لنا.

ـ نحن لا نتذكر ذكريات إلوكيم.

ـ لا.

ـ ذاكرته بالنسبة لنا هي الصوت الذي كنا نسمعه. وأنا أفكر أحياناً أن دافعنا لصنع أشياء بأيدينا هو أمر انتقل إلينا منه.

لهثت حواء فجأة. توقفت. انحنت على نفسها.

ـ آدم، آدم، إنهما يعضانني!

وخلال لحظة طغى عليها الألم وملأها بالكامل. ساعدها آدم كي تضطجع على الصخرة التي ينامان عليها، ولكن حواء لم تشأ الاستلقاء. انزلقت شيئاً فشيئاً حتى أسندت ظهرها إلى بعض الصخور. كان الألم قد توقف.

ـ تصورتُ أنهما يأكلانني ـ ابتسمت حواء، وكانت مغطاة بالعرق.

وتصورت الشيء نفسه بعد قليل، ثم مرة أخرى بعد ذلك. كان الألم يذهب ويجيء. إن فيه شيئاً من البحر، قالت لآدم. إنه يتحرك مثل البحر. وكل موجة تنتزع مني شيئاً؛ ربما يكون الابنان ملتصقين بلحمي وإلوكيم يعمل على فصلهما بحجر مشحوذ ليُخرجهما.

تفاقم الألم. انتهت التفسيرات التي تحاول من خلالها فهم الذي يحدث في جسدها. وبدلاً من البحث عن تفسيرات، بدأت تقاوم بقوة، تضغط أسنانها، وتتشنج بالكامل، محتضنة بطنها لتحميه، باكية وصارخة بملء رئتيها. ووراءها كان آدم يربت براحته على رأسها، يداعب شعرها، كان يبكي ويصرخ أيضاً. والخفافيش التي صارت أعدادها كبيرة استيقظت من نومها النهاري وراحت تحلق طائرة إلى أعلى المغارة. كانت وتيرة الصرخات وبكاء الرجل والمرأة تتصاعد وتتصاعد مع ازدياد حدة الألم، والقبضة المطبقة التي كانت حواء تخشاها ستنتهي إلى سحقها. كانت صرخاتها حزم أصوات عريضة ومفتوحة، ترددها المغارة وتبثها إلى العالم من خلال الكوة العلوية التي يدخل منها الضوء. أما صرخات الرجل فكانت ولولات عجز، غضب، حيرة. كان يشعر بألم المرأة في كل أنحاء جسمه. ويبكي بحرقة وهو يراها تعاني وتتألم.

حمل الهواء صرخات آدم وحواء حتى السهل الفسيح، حيث ترعى الحيوانات، ونشرها عبر الجبال، وتركها تسقط على النهر.

البهائم المذهبة والسنورية الرشيقة، خيول، ثعالب، أرانب، دببة، عظاءات، حجل، أبقار، ماعز، ثيران مروج، قرود؛ حيوانات من كل الأجناس والأحجام اتجهت نحو صرخة الأنين كما لو أنها نداء. سحبٌ من الغبار تعالت تحت حوافر الخيول وبراثن السنوريات السريعة، والدببة وثيران البيسون، وكأن ذلك الصوت الذي بلا

كلمات قد تمكن من اختراق النسيان الذي تملكها مذ خرجت من الجنة.

الصقور، النسور، الزرازير، الشحارير، العصافير نقارة الخشب والزرقاء كانت أول من دخلت ووقفت على البروزات الصخرية في جدران المغارة المغطاة برسوم حواء. وشيئاً فشيئاً، ومن خلال صرخات التأوه المتقاطعة تلك، راحت رباعيات القوائم تدخل بصمت: الضواري والذئاب. أحس آدم بالهلع للحظة حين رأى نموراً، وخنازير برية، وفهوداً تجتاز عتبة المغارة. تحولت صرخاته إلى تأوهات مفاجأة وبكاء عزاء وذهول عندما دخلت الخيول في صف، واحداً بعد الآخر، ودخلت معها الماعز والغزلان والبغال؛ ضوارٍ وطرائد تخلصت فجأة من الجوع والغريزة التي تزرع الشقاق بينها. وبينما حواء تستند إلى الحجر، مستغرقة في آلامها، ورأسها منحن فوق ركبتيها يتأرجح إلى الوراء وإلى الأمام، أحست بوجود الحيوانات قبل أن تراها؛ أحست أنها محاطة بأنفاس دافئة، بهواء زخم وناعم ليَّن الحيز المحيط بها وأسندها. رفعت رأسها ورأت الحيوانات متزاحمة حولها بمظهر مصالحة واعتراف، كما لو أن الطبيعة قد رجعت فجأة إلى العهد الذي لم تكن فيه ريبة ولا موت، حين كانوا يتقاسمون معاً نداوة الفردوس والبتلات البيضاء. كان أحد الأحصنة يلامس بمقدمة وجهه كتف آدم، وراح سنور بري يلحس وجهها. منذ طردهما إلوكيم من الجنة لم تشعر بمثل هذه الرفقة الواسعة. أجساد الحيوانات القوية، وملامحها الوديعة، استثارت حنينها إلى براءتها. بكت بحزن سعيد ومستغرب. وأدركت مدى شوقها إلى وداعة البهائم وبساطتها. أحست بامتنان ورقة عميقة حين فكرت في أن ألمها قد حرك مشاعر الحيوانات إلى حد ظنت معه أن جسدها كله ينفتح. وفي هذا

الانفتاح، تراخت العضلات التي كانت تحبس بها الوليدين، بتحدٍ، في بطنها، منكرة على نفسها أن تشارك إلوكيم في الخلق. وبرفقة الحيوانات، وناظرة إلى وجه آدم المتأثر والحاني في الجانب الآخر من ساقيها، قامت بجهد كبير، وصرخت بملء رئتيها، وهكذا كان أن أخرجت أول امرأة ابنيها للعيش على الأرض.

19

قمر أصفر وهائل كان يطفو في أعالي الليل. قطع آدم حبلي خلاص الابنة والابن. حمل الصقر والنسر إحدى المشيمتين، أما الأخرى فأكلها النمر الصغير. كسرت رائحة الدم السكينة. سُمعت زمجرات خافتة، انسلت أشد الحيوانات ضعفاً خارجة بأقصى سرعة. وخرج أشدها ضراوة مراوغاً بملامح مفزعة كمن يستيقظ من حلم دون أن يدري أين هو. لم يبق في المغارة سوى الكلب والقط، والخفافيش المعلقة ورؤوسها إلى أسفل.

بكى آدم وحواء وهما يريان انصراف الحيوانات. وواصلا البكاء بلا صخب ودون كابح لدموعهما التي كانت تتدفق كأنها فيض أحاسيس متراكمة. ولن يُمحى ذلك الحدث الغريب العصي على الوصف من ذاكرتيهما إلى الأبد.

وأخيراً عاد الواقع الذي رأى فيه آدم حواءَ وهي تدخل وتخرج من راحة النوم. لم تكن متحمسة للاستسلام الكامل للراحة، تمنعها الرغبة في النظر بتمعن إلى الجسدين الصغيرين العاريين اللذين وضعهما آدم بجانبها. وكان هو أيضاً ينظر إليهما ولكنه لم يتوصل إلى تركيز متماسك بعد. كان يفكر في الحيوانات ويردد: إنها حيواناتي. لقد عادت حيواناتي. كم أنا وحيد من دونها! إنها حيواناتي، ولكنها جاءت من أجلها، من أجل هذا الألم الذي استُبعدتُ منه.

كان الكائنان الصغيران يحركان أيديهما وأرجلهما. وبين وقت وآخر يرتعشان مذعورين كأنهما يريان كوابيس. كانا يفتحان أعينهما قليلاً ويعودان لإغماضها. استلقى آدم إلى جانب الجلد الذي يرقد عليه الصغيران. وأخيراً نامت حواء، فشبك أصابع قدميه بأصابع قدميها ونام هو أيضاً.

استيقظت حواء عدة مرات في الليل. كانت قد توقفت عن البكاء. وكان جسدها يؤلمها، ولكنه ألم محتمل ووديع. كم صرختُ، فكرت. كل ما لم أكن أعرف قوله أطلقته في الهواء. ندمت لأنها فكرت في منع خروج التوءم منها لغضبها من الألم الذي قدره لها إلوكيم. وكان دخول الحيوانات هو ما أزاح عنها الغضب، كما لو أن دخولها قد غسل قلبها.

فتح آدم عينيه عند الفجر. فابتسمت له. نظر الرجل والمرأة إلى الابن والابنة.

- إنهما مختلفان عنا - قال آدم -. لا أظن أنهما قادران على المشي.

- ربما سيفعلان بعد أيام - قالت حواء -. فالمهر الصغير نهض ومشى.

- وماذا سيأكلان؟

نظرت حواء إلى وجهي الصغيرين. اقتربت. نظرت داخل فميهما.

- لا أسنان لهما يا آدم!

- المهر والعجل الصغيران يأكلان من أثداء أميهما. ألم تقولي لي إن شيئاً حلواً يخرج من حلمتيك؟

أمسكت حواء ثدييها. كانا يؤلمانها. إنهما كبيران ومنتفخان. استوت جالسة وأغمضت عينيها. ما الذي ينتظره آدم، أينتظر ألا يقتصر

جسدها على صنع الأبناء، وإنما أن يطعمهم كذلك؟ كانت متعبة جداً. لقد جاء موعدها ومضى. وهي تريد الآن أن تنام أياماً عديدة، وأن تسترد قواها، وأن يعود جسدها إليها. بدأ الصغيران البكاء. وكان البكاء يتغلغل عبر جلد حواء كما لو أنه يخرج منها بالذات. ظلت مغمضة العينين، دون حراك. كان وقع الصوت حزيناً، بائساً.

- إنهما جائعان يا حواء - قال آدم -. أعطيهما طعاماً مما يخرج من صدرك.

- لماذا لا تجرب أنت يا آدم؟ فأنت لك ثديان أيضاً.

نظر إليها آدم دون أن يدري ماذا عليه أن يفكر. حمل أحد التوءمين. رأت حواء صغيرها يبحث عن صدر أبيه. نهضت. كان المشي يسبب لها الألم، ولكنها خرجت من المغارة كيلا تسمع البكاء. ناداها آدم: حواء، يا حواء، أين أنت ذاهبة؟، ولكنها لم تجب، ولم تلتفت. كانت تريد أن تنام، أن تستريح. تهاوت منهوكة في ظل شجرة التين. أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة. وكانت تسمع بكاء التوءمين خافتاً. أغمضت عينيها. كانت الشمس تتجه نحو منتصف السماء مضيئة الربيع الأزرق. تحول وعيها إلى لفافة خيوط سوداء وتدحرجت نحو سكينة النوم.

- ليس هذا وقت النوم يا حواء، استيقظي.

أحست بجسد الحيّة البارد يلامس ذراعها. وعندما تمكنت من الخروج من ثِقل النعاس الذي غرقت فيه، تنبهت بسرعة. رأت ذيل الحيوان ملتفاً على غصن منخفض ورأسه يطفو في الهواء قريباً منها.

- ما كان عليكِ أن توقظيني.

- لا يمكنني تفويت هذا الحدث. لاحظي أنك صنعتِ رجلاً وامرأة لإلوكيم.

ـ لقد تألمتُ كثيراً.

ـ ألم تلاحظي أن الحيوانات تمشي على أربع قوائم؟

ـ وأنتِ تزحفين.

ـ انسيني أنا الآن. أنت ليس لك جسد ضخم مثل الفرس أو البقرة. وتمشين منتصبة. ولهذا ستولد المخلوقات التي من جنسك ضئيلة وضعيفة. عليكِ أن تقدمي لها الطعام، وأن تعتني بها إلى أن تنمو.

ـ أنت أيضاً تقولين إنه عليّ أن أقدم لها ما يخرج من ثديّ!

ـ عندما أخرجكما إلوكيم من الجنة انقلب مسار الزمن. لقد كنتِ خالدةً في الجنة. وما كنتِ ستنجبين أبناء أبداً. ما كانت هناك حاجة لتكاثركِ لأنه كان مقدراً لكِ ألا تموتي. أما الآن فيتوجب إعادة خلق الواقع. لا بد للخلق من أن يعود إلى نقطة يمكن البدء منها مجدداً.

ـ لستُ أفهمك.

ـ ابناكِ يا حواء، ابناك سيعيدان الزمن إلى بدئه. وعليك تغذيتهما.

ـ ابناي يعرفان الجوع والعطش، وهل سيمتلكان المعرفة أيضاً؟ وسيحلمان؟ ويتخيلان؟

ـ إنهما انعكاس لكِ.

ـ ولماذا تظنين أن الرغبة تنهشني لمعرفة إذا كان ما تقولينه صحيحاً، عن أنني كنت من قبل خالدة وكاملة؟ لا أجد معنى لهذا.

ـ إنك قادرة على الفهم ـ قالت الحيّة ساخرة ـ. الخلود لا يحتاج إلى المعرفة. ولكن المعرفة لا غنى عنها بالمقابل من أجل الحياة والبقاء. يسأل أحدنا نفسه ويجيب. الحقيقة تظل بائسة دون شك. ما الحاجة إلى المعرفة إذا كان المرء سعيداً، ولا ينقصه شيء؟ فالوفرة جمود. ولكن ما تشعرين به قد يكون حنيناً.

ـ حنين؟ أنا لم أكن أعرف حياة أخرى. وقد كنتِ أنت من أخبرتني بأن هناك طريقة أخرى للعيش.

ـ يمكن الشعور بالحنين إلى ما لم نعشه قط. ربما يكون إلوكيم قد غرس فيك الحنين كي تأكلي الثمرة.

ـ لستُ أدري ما الذي أفكر فيه. ولا أفهم لماذا فعل ذلك.

ـ لقد أخبرتُكِ بأنه يضجر.

ـ وكنتِ أنت شريكته؟

ـ كنتُ أجهل أشياء صرت الآن أعرفها. لقد كشفها لي كي يعذبني. فقد عاقبني أنا أيضاً. جعلني أتلوى أكثر منكما. انظري كيف أزحف. أنتَ ستُحَمّلكِ الأجيال الآتية المسؤولية، ولكنك ستستعيدين سمعتك مع اكتساب نسلك المزيد من المعرفة. وبالمقابل لن يدافع أحد عن حيّة حزينة. سيجعلون مني تجسيداً للشر.

ـ يؤسفني ذلك ـ قالت حواء.

ـ كنت أظن أن إلوكيم لن يتوانى عن إخراجي من هذا التنكر المضحك، ولكن غضبه مازال قوياً.

ـ ربما كان يتألم أكثر مما نتخيله.

ـ إنه يعرف الكثير. وارتباط المعرفة بالمعاناة لا ينفصم. عليّ أن أنصرف ـ قالت وهي تنسل على جذع الشجرة ـ واذهبي أنت واهتمي بوليديك. استجيبي لغريزتك الحيوانية. فليس هناك من هو أفضل منك لعمل ذلك ـ همست بذلك ساخرة وهي تبتعد متوغلة في أجمة.

عند عودتها إلى المغارة، كان التوءمان يصرخان بقوة ظنت حواء معها أنها ستجدهما قد كبرا. غذت الخطى. وحين وصولها كان آدم يحمل أحدهما، وكان الصغير متراخياً ورأسه متدلياً.

- دعني أجرب أنا - قالت حواء.

وسَّدت الوليد على ذراعها. إنها الطفلة. وبعينين مغمضتين، ووجه محمر، كانت تزعق بأعلى صوت. وما كاد دفء الجسد الصغير يلتصق بخاصرة حواء حتى انفلت ثدياها، وسال الحليب مثل ماء ينبوع. وبذهول، أمسكت رأس الطفلة وقرّبت الفم الصغير من حلمة ثديها.

- أعطني الآخر يا آدم، بحذر، ضع يدك تحت رأسه.

جلست حواء على الصخرة. كانت الطفلة تمص بقوة. فتدغدغها في مصها. وضع آدم الطفل على ذراعها الأخرى. وجلس القرفصاء وراء حواء كي تستند إلى ساقيه. وأخيراً ساد الصمت. فأطلق آدم زفرة راحة.

- وجدتُ الحيّة في الخارج. تقول إن ابنينا سيكونان ضعيفين. وعلينا العناية بهما حتى يكبرا - قالت حواء هامسة.

- لوقت طويل؟

- لم تخبرني.

- هذا غريب - قال آدم - إنك تفعلين ما تفعله الحيوانات، ولكنك لا تشبهينها.

- بلى، إنني أشبهها، ولكن لا أهمية لذلك. هذا ما نحن عليه الآن. أرأيت كيف بدأت أُعطي حليباً عندما أحسستُ بجوعهما؟ كما لو أن جسدي ينصاع لهما. وهما صغيران جداً. انظر إليهما. لا نفع من عجرفتي.

- أهذا ما قالته لكِ الحيّة؟

- قالت شيئاً من هذا القبيل. وهي أيضاً لم تفهم كل ما حدث بالكامل. تحب التظاهر بأنها تعرف، ولكن من الصعب تفسير ما تقوله.

كانت عينا الطفلة مفتوحتين. وكانتا بنيتين. وكانت مغطاة بطبقة دهنية بيضاء، ولها تقاطيع ناعمة ودقيقة بصورة مذهلة. وكانت بشرة الطفل وشعره أشد قتامة. وعيناه بنيتين أيضاً. كيف استطاعا البقاء حيين طوال شهور عديدة بلا خياشيم وبلا حراشف، طافيين كالأسماك في سائل بطنها الكثيف؟ يا للغرابة، فكرت.

بعد أن شبع التوءمان، أمرت حواءُ آدمَ أن يأخذهما. ففعل ذلك بحذر كيلا يخيفهما. كان شعر الأنثى أكثر وضوحاً، وكانت عينا الطفل مصوبتين إليه. غسلَ الأيدي والأقدام الصغيرة، والمؤخرتين الضئيلتين. نظف وجهيهما، تفحص آذانهما الدقيقة، وفتحات أنفيهما. ووضع إصبعاً في فميهما، ولمس اللسانين.

كانت حواء تنظر إليه بفضول ومتعة. أحست أنها ممتلئة بالحليب؛ ثدياها ممتلئان، وقلبها ممتلئ.

- علينا أن نسميهما - قالت.

كيف كان لهما، هي وهو، أن يكونا لو أنهما ولدا صغيرين هكذا؟، تساءلت. ما كان هناك من ينظفهما، ولا من يتأملهما بتلك الخفة الرطبة.

20

في اليوم التالي، وكان هناك مطر خفيف، خرج آدم من المغارة يرافقه كلبه قايين. لم يتوقف عن التفكير والتأمل في سرٍّ ذينك التوءمين الخارجين من النفق القاتم الذي ظن أكثر من مرة أنه هو نفسه سيختفي فيه. كانت حواء ترتعش عندما تضحك بعمق. وكان التقاط تلك الرعشة بالنسبة إليه تنفساً جديداً لهواء الجنة. تساءل إذا كان الآن، بالمقابل، سيتذكر الألم الذي يراه في وجهها، في جسدها المهتز والمثقل وهي تُخرج من داخلها ثمرة بذرة ربما ساهم هو في نموها بسقايتها بالسائل الذي يخرج من عضوه. ولكن لا وجود لشجرة تبكي عند الولادة. النباتات تنبثق دون أي صخب، بينما تخرج الحياة من حواء كالكارثة. هو لا ينزف، وجسده لم يتبدل، ولم يشعر بأي ألم من تلك الولادة. لماذا هو لا، وهي نعم؟ ما معنى ذلك؟

مضى باتجاه النهر وفي نيته رمي السلّة والتقاط بعض الأسماك.

كانت الأرض الرطبة تهز سطحها مبعثرة الماء في حيّات رفيعة تقطع الوحل الأمغر إلى دلتات كبيرة. كان آدم وقايين يتقدمان واثقين، يقفزان فوق برك الماء، ويشمان الروائح القوية. وفجأة توقف قايين. رفع أذنيه وزمجر. ولمح آدم دباً صغيراً بين الآجام ينظر إليه بفضول. أنّب آدم كلبه. فبعد أن رأى الحيوانات تحيط بحواء، خُيل إليه أن علاقته بهذه الحيوانات ستعود إلى ما كانت عليه في الجنة. كان قلقاً على الحيوانات الصغيرة التي عليه أن يواصل اصطيادها، ولكنه

كان مقتنعاً بأن أعدادها كبيرة جداً لأنها مكرسة لتكون طعاماً لهما. اقترب من الدب مهدئاً بأبوية ومودة. لم يتحرك الدب الصغير. وكان آدم على وشك أن يمد يده ليسمح رأس الحيوان عندما سمع ضجة حيوان كبير يقترب مندفعاً وسط فرقعة تكسر أغصان وأوراق. ركضت الدبة الأم باتجاهه. ولحيرته حيال العودة المفاجئة لانعدام الثقة والعدوانية، قفز آدم إلى أقرب شجرة منه وبدأ يتسلقها مرعوباً. لحقت بـد الدبة مزمجرة وغاضبة. أحس آدم بمخالبها تخمش باطن قدميه. أحس بالألم في جلده وقلبه. قفز قايين للدفاع عنه وهاجم خاصرة الدبة. إنه كلب قوي، أنفه قصير، ورأسه متين ومكور. والدبة التي فوجئت وتضايقت من هذا التدخل، طوحت به بضربة من قائمتها الأمامية بين بعض الشجيرات. عاود قايين الهجوم. فتوقفت الدبة. صاح آدم من فوق الشجرة. حذار يا قايين، اتركها يا قايين. كان الكلب يغرس أسنانه بقائمتي الدبة، غير قادر على كبح غريزته والتراجع. فانقض الحيوان الضخم الغاضب فجأة على الكلب. وكان آخر ما رآه آدم هو حنجرة قايين بين شدقي الدبة، بينما هي تهزه من جانب إلى آخر. تحولت زمجرات الكلب إلى تأوهات ألم خامدة، أنّة طويلة، كئيبة، مرعوبة كانت آخر ما سمعه قبل أن تفلت الدبة جسد الكلب الخامد عند قدميها وترفع بصرها حيث يقبع آدم.

لم يدر الرجل كيف قتل الدبة. إنه يتذكر ألم الحيوان، ومخالبه الملطخة بدم قايين الحار، وقوته الاستثنائية، ولكنه يتذكر أيضاً قوة غضبه غير المتناهية، والحجر الذي هشم به وجه الدبة، وعينيها، وأنفها.

كان ينزف. وكان مصاباً بخدوش وعضات، ولكنه حي. شيء يمكن علاجه. أما قايين فكان ملقى على الأرض بعينين مفتوحتين

تلاشت منهما نظرته الوفية والمتيقظة. عاد آدم إلى نفسه. لم يدر إلى أي وحش تحول. وحش قادر على قتل دبة بيده العزلاء. كان جسده يرتعش كما لو أن الريح تهزه. جثا على ركبتيه. لمس جبهة الكلب وأذنيه. كان بارداً، رخواً، وكان رأسه المتهدل معلقاً بجذعه. حمله وضمه إليه. كان قد رأى بقايا حيوانات أخرى، من تلك التي تخلفها النمور والأسود. ولم يكن يفكر سوى في الأكل حين يراها. لا يفكر في كيف كان موتها، ولا كيف كانت حياتها. لقد فكر في هذا كله هناك، وهو مع الكلب الميت. الموت متشابه، ولكن كلبه مختلف. لقد كان يفهمه ويعرف مسبقاً ما يفكر فيه. كان يحميه. يلحس يديه، ويقبع بجانبه ويدفئه في الليل. لقد كان مختلفاً. جلس على الأرض بجانب الكلب. تذكره وهو يلعب. بكى. غطى وجهه بيديه ولم يتوقف.

دفن الكلب. وسلخ جلد الدبة. ذهب إلى النهر وغسل الدم. ثم رجع إلى المغارة.

ـ أعرف الآن ماذا سنسمي الطفل ـ قال لحواء ـ. سنسميه قايين.

لم يرقها ما رأته في وجه الرجل. وقد كانت تحب الكلب أيضاً. بكته. وستشتاق إليه، ولكن لم يرقها وقع اسم قايين عندما قال آدم إنه سيطلقه على الابن.

ـ أظن أنه علينا أن نطلق اسماً آخر على الطفل.

ـ لا، إنه اسم جيد.

ـ ولكنه اسم يجلب الألم دائماً.

ـ سأنسى.

ـ لقد قتلت الدبة ـ قالت حواء ـ. وجلبت جلدها. إنه يخيفني. حيوان بهذا الحجم. لم أكن أتصور أن بإمكانك قتله.

ـ ولم أكن أنا أتصور ذلك أيضاً. ولا أجد تفسيراً لما فعلته. كان يمكن لي أن أفعل أي شيء.

ـ لقد أغضبتكَ الدبة وعاقبتها.

ـ أجل.

ـ إلوكيم حكم علينا بالموت أيضاً.

الموت. كلبه بلا حياة. أنفه جاف. عيناه كامدتان. الرأس متهدل. وعند دفنه كان بارداً ومتصلباً. في لحظة واحدة تلاشى كل ما كان يجعل منه قايين. ما بقي من الكلب الآن موجود فيه فقط، وفيها وفي الرسوم التي على جدران المغارة. إنهم تراب وإلى تراب سيعودون. هل سيعرف آخرون يوماً في أي مكان من الأرض ستبقى حواء، وهو، والطفلان حديثا الولادة؟ من سيذكرهم؟ كيف سيذكرونهم؟ تذكر حلمه عن الأشجار ذات الرؤوس البشرية التي تتهاوى مقطوعة. لن يفيد في شيء قدوم المزيد والمزيد من الرجال والنساء إلى الحياة. جميعهم سيموتون. واحداً بعد الآخر. بوجوه متيبسة وأعين كامدة وأجساد باردة، متصلبة. مثل قايين. ومع ذلك سيشعرون بالجوع، والقلق من أجل البقاء كل يوم. كان يذهل لرؤية نهم الطفلين إلى ثدي حواء. رغبة كبيرة في الحياة لدى كل حيوان، كل نبتة، كما لو أن الموت غير مهم، كما لو أنه غير حقيقي.

تحول غضبه إلى حمى استقرت في أصل فخذه. كان جسد حواء يشع ببياض الحليب المتدفق من ثدييها. وفي عتمة المغارة، بينما هي نائمة مع ابنيها على جلد الدبة الأسود، كان جسدها يلمع مستحماً بوميض النار الذهبية والبرتقالية، كاشفاً عن تكور جديد ومضياف. أوقفت هي اندفاعاته إلى أن تراجع الخوف من أن أحشاءها ستؤلمها. واحتفلت معه

بعد ذلك بما استجد من نحول على خصرها المستعاد من البحر. وبينما جسداهما متلاصقان في الليل، كان آدم يتذكر القسوة التي هشم بها الدبة وتؤلمه يداه على عظام المرأة الحساسة. لم تكن الأمومة قد رسخت مظهرها الخارجي وحسب، وإنما وعيها بقدرات أكبر من القوة. وكانت تلاحظ أنه يدرك ذلك أيضاً، وأنه لهذا السبب لا يكل عن ارتياد أعماقها، والاستقرار في مخبئها المظلم والرطب.

وهكذا كان قصيراً الزمن الذي انقضى بين ولادة التوءمين وإحساس حواء من جديد بأنها تخبئ كائنات أخرى. كانت أمواج بحر آخر قد بدأت تتلاطم في داخلها. تذكرت الحيّة وهي تخبرها بأنها ستكرر التجربة. مع أن تلك لم تكن إرادتها، فقد فكرت في أنه لا بد أن تكون للجسد مسوغاته. وخلافاً للمرة الأولى، لم تشعر هذه المرة بالخوف. فالألم يُنسى في الحال. تمحوه دهشة رؤية كائنات أخرى ضعيفة تبدأ بالتحول إلى مثيل لهما، ولغز أنها كائنات لا يمكن وصفها، ولكنها مع ذلك جزء منها. فبكاؤها، وجوعها، وشعورها بالبرد، كله ينتمي إليها هي. وبالرغم من ذلك كله لم تفقد شيئاً من ذاتها. وكثيراً ما كانت تجد السكينة وهي مستلقية تغذي الطفلين منها. فالسماء، والنهر، والطبيعة التي تتشكل وتتحلل أمام عينيها، والليل وأضواؤه التي لا حصر لها، والبحر الحبيس بصورة غامضة، والشمس، والقمر، والأشجار، والحيوانات، كلها كانت تتضمن بهجة، وإن بدت خفيفة ومهدَّدة، تتحدر من الوفرة. ورؤية ردّ فعل صغيريها على حنوها عليهما ومداعبتها لهما وتعرفهما عليها، ورؤية طرب عينيها وأيديهما الصغيرة عندما تقترب، كل ذلك يجعل من الصعب عليها أكثر فأكثر أن تواصل التفكير في أنها ضحية عقاب متعسف وعظيم.

II. أَثمِرُوا وتكاثروا

21

نظـر آدم إلى تـشققات جـذوع الأشـجار. كـانـت كـثيرة. فالأشـجار كلها تقريباً، فـي الطريق إلى النهر، فيها شقوق. لم يكن يعـرف العدّ، ولكـن رؤيـة أشـجار كـثيرة مـشققة كـان كافيـاً لأن يعـرف أن هـذه الأرض التي يعيش عليها تستهلك حياته شرخاً بعد شرخ. بل إن أثـر الـزمن ينطبع على أجساد أبنائه. هكذا تعد حواء الأيام: برؤيتهم يكبرون.

كـانوا يكـبرون، ولكـنهم مـازالوا بحاجـة إلى الوقـت كـي ينضجوا. كان هابيل وأكليا جديدين أكثر من قايين ولولوا، لكن الفرق بينهم لم يكن محسوساً. فالزمن الذي احتاجه الأربعة للمشي، والتكلم، والاعتماد على أنفسهم بدا بلا نهاية وهو يمضي، لكن آدم يحـنّ إليـه الآن. لم يكـن تلقينهم شـؤون الحيـاة سـهلاً. فـأي مـنهم لم يـتمكن مـن المشي قبل أن يزحـف قبل ذلـك علـى أربـع. وحـين كـانوا يحـاولون الوقـوف، يـسقطون ويرتطمـون بـالأرض. ولم يكـن يبـدو أنهم يفكرون فـي ما يمكن أن يحدث لهم فـي أمـاكن وعـرة، أو قريبـاً مـن الـصخور. وكـان عليه وعلـى حـواء اقتيـادهم مـن أيـديهم. ويتـذكر كـم كـان يؤلمهمـا ظهراهمـا وهمـا ينحنيـان لإسـنادهم فـي خطـواتهم الأولى. وكـانـا لا يرفعـان بـصرهما عـنهم. فالمهـارات الـتي يفتقـر الـصغار إليهـا يعوضـانها بالفضول. لقـد كـانوا مثـل أمهـم، يريـدون لمس كـل شـيء، ولكنهم يجهلون أن النـار تحـرق وأنـه مـن الـسهل إلحـاق الأذى بأنفسهم. فكانت حواء تقول إنهم هكذا لأنهم يفتقرون إلى معرفة الخير والشر.

أطعمتهم تيناً، ولكنه لم يعطِ مفعولاً يذكر. ولم يستطع آدم أن يفهم كونهم بهذا الجهل المطبق. وكان يفكر في أن فيه هو وحواء بعض الملامح المشتركة مع الحيوانات، وربما يكون أبناؤهما أكثر شبهاً بالحيوانات. وعلى الرغم من أن القط لا يلوث المغارة أبداً بفضلاته، فإن الأبناء يبولون ويتغوطون حيث يشعرون بالحاجة إلى ذلك. ولم يفهموا إلا بعد كفاح عنيد أنه عليهم الخروج خارجاً وتغطية برازهم بالتراب. وما إن بدؤوا بالانتباه حتى أخذوا يتكلمون. في البدء كان من الصعب فهم ما يقولونه. وقد تمكنت أكليا ولولوا من قول ما تريدانه قبل أخويهما. كان ذاك زمن الضحك له ولحواء. فقد كانا يضحكان حتى الاستلقاء على ظهريهما وهما يسمعان الصغيرتين تقولان ماء، قط، ثدي. ولكن في ما بعد، عندما امتلأ الصغار الأربعة بالكلمات، انتبه آدم وحواء إلى مدى اختلاف كل منهم عن الآخر. وفكرا في أنهما يستطيعان تعليمهم كيف يعيشون، وليس ترويضهم.

خوف حواء من الشتاء، ومن ألا يعود حليبها كافياً لتغذيتهم، كان الدافع الذي حوّل اهتمامها بالأرض وثمرها إلى تعرّفٍ صائب على النباتات. فقد صارت تنمو حول المغارة الآن أشجار لوز وكمثرى وكرمة، وقمح وشعير وجذور صالحة للأكل. وكان قابيل ولولوا قد ورثا مهارة الأم في معرفة البقول والأعشاب. فكانا يعنيان بالبستان، بينما هابيل الذي أبدى منذ نعومة أظفاره معرفة بالحيوانات، فقد دجن نعاجاً يستخرجون منها الحليب، وأغناماً تحوك أكليا صوفها بطريقة توفر لهم ما يتدثرون به دون أن يضطروا إلى القتل للتزود بالأغطية.

لم تكن حواء تشعر بالحنين إلى طفولة التوائم. ولم تكن تتحسر مثل آدم للسرعة التي كبروا بها. كان آدم يقول إنه يخيل إليه أنه مازال يراهم وهم يبدؤون التجرؤ على الوقوف، ويترنحون ويسقطون أرضاً،

بينما هما يراقبانهم ببهجة وخوف. أما حواء فكانت تكتنز تلك الصور بحنان، ولكنها تفضلهم الآن وقد صاروا يعتمدون على أنفسهم. ولم تكن تنسى إنهاكها عندما لم يكن الأبناء يتيحون لهما أي قدر من الراحة، ويتعلقون بهما طوال الوقت، كما لو أن جسديهما ملك لهم. وعندما كانا يتعلمان زراعة الأرض والتزود بالغذاء والكساء ـ بحيث لا يضطر آدم إلى الخروج وتركها وحيدة للقيام بالمهمة المستحيلة بالعناية بأربعة كائنات صغيرة ـ عاشا حياة بداوة يتنقلان من مكان إلى آخر وهم يحملون الأطفال على خصورهم. في فصول الشتاء الأولى كان لا بد لهما من أن يلوذا بالمغارة، والانتقال في النهار وفي الليل إلى عالم من الهمهمات حيث لا يمكن للكلمات أن تحلّ أي شيء وحيث الغريزة هي المرشد الوحيد المؤكد. كانت معاناة آدم من تبدل الروتين أكثر من معاناتها، ولكنه مقت جولات الاستطلاع والصيد الطويلة، فكان يرجع مسرعاً خوفاً من أن الغم تحل بهم كارثة. وتوصل في النتيجة إلى أنه من الأفضل أن يموتوا جوعاً وهم معاً بدل المجازفة بأن تفصل أخطار العالم بينهم. أما هي فكانت تجد صعوبة في الاعتياد على رؤية جسدها يتحول إلى مصدر غذاء لأربعة أزواج العيون الناظرة إليها والمتطلعة إلى الالتصاق بصدرها. ولخجلها من مشاعرها، لم تعترف قط لآدم بأنها كثيراً ما رغبت في الخروج هاربة. فمنذ أن شهد الولادتين وتبين له أنها ليست قادرة على انتاج مخلوقات وحسب، وإنما تغذيتهم أيضاً، صار ينظر إليها على أنها معجزة عجيبة. وكان يؤكد لنفسه أن إلوكيم قد منحها سلطة كبيرة وجعلها تعاني الدم والألم على أمل تجنب أن تتحداه. لم تكن حواء تعارضه. وكانت تقدّر عناد آدم الحاني، وانكبابه على الأعمال التي يبتكرها لنفسه باستمرار، والرضا الذي تبعثه فيه السيطرة على ما يحيط به وفهمه. كان عنيداً، ويصر على فعل ما ينويه

دون أن يهتم بالأثر الذي يمكن أن يخلفه ذلك مع مرور الزمن. وكان يصعب عليه الصبر، ومراقبة سير الأمور الطبيعي وتركها تجري وفق هواها وحكمتها. وهو متعجل على الدوام. ولهذا، وعلى الرغم من معرفته مواسم ثمار الأرض، إلا إنه يفضل الصيد ونتيجته الفورية، والحصول على أسرع ثواب لجهوده.

أما حواء بالمقابل فكانت تلحظ كل ما يحدث حولها كما لو لنظرتها القدرة على الرؤية بعيون أكثر من عينيها. لم تكن تتكلف أية مشقة لتسمع في أعماقها ما يفكر فيه الآخرون. وخلال الوقت الذي تطلبه نضج التوائم ووصولهم إلى سن البلوغ، بدا لها أن جلدها قد امتلأ بمسامع وبصرها بملامس تتحسس ضيق مشاعر أبنائها أو توترها. كانت تقرأ حالتهم المعنوية، وبوادر مهارتهم التي كثيراً ما تفاجئها. فالتكاثر وخروجهم منها فتح لها بصورة غامضة لغات الحياة السرية. ووصل بها الأمر إلى أن تخمن مزاج النباتات، والأشجار، والسماء. ومع ذلك كله، لم تستطع أن تتصور إذا كان أبناؤها قادرين مثلهما على معرفة الخير والشر، وإذا كانوا سيفقدون البراءة دون أن يأكلوا أية ثمرة محرمة، أم أنهم، بالبراءة التي هم عليها، سيتعلمون العيش في عالم مثل ذلك العالم، عالم أسئلة لا وجود لمن يجيب عليها، وحيث لا بد من القتل من أجل الأكل والبقاء.

استقروا على نمط من الحياة لا يبتعد فيه هابيل عن آدم. ومثلهما كان قايين ولولوا لا ينفصل أحدهما عن الآخر. أما أكليا الضئيلة فكانت تقضي معظم الوقت مع حواء. لقد بكى آدم حين رآها عند ولادتها. كانت عملية الولادة سريعة بلا أحداث ولا أعاجيب. كان آدم وحواء وحدهما واثقين مما يعرفانه. بدت عملية الولادة لحواء أقل ألماً.

ربما لأنها كانت تعرف ما ينتظرها وأعدت نفسها للمعاناة. كان هابيل هـو مـن أطـل أولاً. أشـد قتامـة مـن قابيـل، وأضـخم منـه. البكـاء قـوي، والعينـان مفتوحتـان. وبعـد راحـة طويلـة عـاد الألم مـرة أخـرى. وأخرجـت حـواءُ أكليا ، مخلوقـة ضئيلة، عيناهـا مطبقتـان بقـوة، ووجههـا مغطـى بزغب أسود، وجبهتهـا ناتئـة. دثـرا الوليـدين بأذيـال ثعالـب ناعمـة. تمشـى آدم حاملاً أكليا فـي المغارة. حملها قريباً من النار. نظـر إليهـا وقـال إنهـا أشبه بقـردة منهـا بكـائن بشري. اختفـى زغـب الشعـر الأسـود عـن وجـه أكليـا بعـد ولادتهـا بقليـل، ولكنهـا احتفظـت بوجههـا الـصغير، وبالتقـاطيع المتجمعـة فـي منتـصف وجهها تحـت الحـاجبين الكثيفـين: الفـم العـريض والنـاتئ، والـشعر القليـل المتفـرق والـذاوي، والأسـود كالخشب المبلـل. ومـع ذلـك كانـت عيناهـا جميلـتين، صـحيح أنهمـا صغيرتان ولكنهما لامعتـان. وكانـت قـدما أكليـا ويداهـا أشـد كمـالاً من أيدي وأقدام أبنائها الآخرين. وكانت ذكيـة ومـاهرة. تحـدس منفعـة الأشياء. فقـد صـارت تـصنع إبـراً مـن العظـام، وتخيـط الجلـود، وتحـوك صوف الأغنام. وكانـت خفتهـا وصـغر حجمهـا مزيـة نافعـة. فليس هنـاك من يجاريها فـي تـسلق الأشـجار، وقطـف تمـر مـن أعلـى أشـجار النخيـل. كانت حواء تحميها وتدللها لتعوض بطريقـة مـا عـن قصور الهبـات الـتي ولـدت بهـا. ومـع أن أخوتهـا أضـخم وأكثـر جمـالاً منهـا، إلا أن حـواء كانت ترى أنها أقوى منهم، وأقرب إلى جوهر كل ما يحيط بهم.

منـذ بعـض الوقـت تـساءلت هـي وآدم عـن أسـباب إلـوكيم فـي جعلهما ينجبان زوجين من التوائم.

انمـوا وتكـاثروا، هـذا مـا قالـه، ولـيس هنـاك مـن يـسكن هـذا العـالم سواهمـا.

سيكون قايين زوجاً لأكليا، وهابيل زوجاً للولوا، هـذا مـا كـان

يؤكده آدم. فهكذا لا تختلط دماء كل من التوءمين. فليس من المستحسن أن تختلط دماء أبناء البطن نفسه. هذا ما قاله له إلوكيم في حلم رأى فيه أنه رجع إلى الجنة. إنه حلم مشوش، قال. بدت الجنة هرمة وخربة. يصعب المشي فيها بسبب الوحل في الأرض وأعداد جذوع الأشجار الملقاة على الأرض. وكان بخار رطب وضارب إلى البياض يطفو بين أغصان الأشجار الضخمة التي تتدلى منها سراخس شاحبة كأنها شعور مشعثة. ونباتات متسلقة ذات أوراق سميكة وكبيرة تخنق أشجار الأرز العملاقة، والشمس تكاد لا تتسرب من خلال الفجوات المفتوحة على السماء وسط تلك الفوضى النباتية، المستقعية، حيث تُثقل الأجناسُ بعضها على بعض مستغرقة، كما يبدو، في صراع حتى الموت. وخلال تجواله دون وجهة محددة، رأى أكليا تتنقل من غصن إلى آخر، تتبعها غوريلا لها عينان شديدتا الكآبة. ورأى قايين يلحق بها ويُسقط الأشجار واحدة فواحدة بينما هي تتفادى مدقة خشبية يضرب به الأغصان والجذوع. ورأى هابيل نائماً ولولوا جالسة إلى جانبه ويداها على وجهها. وكان هو يتكلم إلى ابنيه، يأمرهما بأن يرجعا، ولكنهما لا يسمعانه. كانا قريبين، ولكنهما يبدوان نائيين جداً. عندئذ جرى ما أرعبه، فقد تكلمت الغوريلا بصوت إلوكيم: هابيل مع لولوا، وقايين مع أكليا، يجب ألا تختلط الدماء، قال الصوت الراعد. واستيقظ آدم على وقع هذه الكلمات المدوية مع ضوء الصباح.

لقد تكرر الحلم مرات كثيرة مذ كان الأبناء صغاراً. وكان يقول لحواء إنه حلم رهيب. حلمٌ يخنقه ويخرج منه مغموماً على الدوام. ولكن إلحاح الحلم عليه جعله يعتبره إشارة واضحة إلى إرادة إلوكيم.

كانت حواء تخشى العاطفة التي توحي بها إكليا لآدم. فهو يعاملها

بتفضيل. وكثيراً ما كانت تفاجئه وهو ينظر إليها وفي ملامحه شيء من عدم التصديق، كما لو أنه يجد مشقة في تقبل ظهورها بينهم بالطريقة نفسها التي ظهر بها الآخرون. أما حواء، فبدا لها طبيعياً أن يُقَدَّر للتوائم الأربعة أن يتقاطعوا في ما بينهم، لاسيما حين تفكر في أنه لو لم يولد كل ذكر مع أنثاه، لكان عليها هي نفسها أن تنجب من أبنائها بالذات. رهيب هذا العالم، هذا ما كانت تفكر فيه بكثرة. رهيب انعدام يقين حياتهم، كل ما يجهلونه، على الرغم من العقاب الذي تعرضوا له من أجل المعرفة. كيف يمكن لها ألا تتصور أن إلوكيم يسخر منهم؟ إلوكيم القاسي. أب قاس يهجر مخلوقاته. وبعد أن أصبحت الآن أماً، بدا لها تصرفه أقل قابلية للفهم. والأمومة لا تنتهي أبداً. مثلما لا ينتهي الألم أيضاً. لقد صار أبناؤها يافعين الآن. وعما قريب سيكون عليهم التزاوج. ولمعرفتها بأحلام آدم وما تحمله من نوايا، أدركت مسبقاً، بينما هم يكبرون، بأنه لا سبيل إلى تجنيبهم المعاناة. لقد كان قايين قوياً شديد البأس منذ طفولته. يقع ويرتطم ونادراً ما يبكي، وكأنه منذ نعومة أظفاره يحتضن وعيَ بالغٍ ينتظر بصبر نضج جسده. وكانت لولوا، لولوا الجميلة، هي في نظره بدء سعادته ومنتهاها. كانت حواء تراهما كوجه كائن وقفاه، لا يكتمل وجوده إلا عندما يكونان معاً. كلاهما صموت ومتجهم مع الآخرين، لكنهما دافئان وبشوشان في ما بينهما. كانا يتمتعان بالقدرة على التفاهم بالنظر. وجمال لولوا المتزايد الذي كان يحير هابيل، وحتى آدم نفسه، كان طبيعياً جداً في نظر قابيل الذي يراه كإزهار الشجرة المتأهبة لتقديم الثمر. ورؤيته لها بهذه الشفافية لا يعني مع ذلك أنه لم يكن يعبأ بجمالها. بل على العكس، كان ذلك يسعده لأنه متأكد من أن لولوا هي رفيقته التي سيكون معها إلى الأبد.

ـ هل أنت متأكد يا آدم من أن إلوكيم قد قال بعدم اختلاط الدم؟ الحيوانات تختلط.

ـ أنت تعرفين جيداً أننا لسنا مثلها.

لا يمكن التصرف خلافاً لأحلامه، كان يقول لها. وكان يعذبها احتمال أن تكون أحلامه انعكاساً لتفضيله هابيل. فتمتعه بموهبة التواصل مع الحيوانات تُذكّر آدم بالطريقة التي كانت الحيوانات تنصاع بها له في الفردوس. لقد كان هابيل جميلاً مثل لولوا. يتفوق بطول قامته على أبيه. وجهه نحاسي وأنفه طويل ومستقيم، مع ارتفاع في جبهته وصدغيه. وكان حيوياً ولعينيه، مثل عيني أخته، اللون الأخضر الفاتح الذي لأوراق شجرة الحياة. أما قايين فكان أضأل حجماً. ولم تكن تقاطيع وجهه بمثل دقة تقاطيع أخيه، ولكنها لطيفة، بل يمكن القول إنها جميلة. ومع ذلك، ربما لأنه أحس منذ طفولته أن ميله إلى الأرض والصمت قد خيّب آمال أبيه، تحول قايين إلى فتى نفور وقليل الكلام. يمشي منحنياً. وعندما يكلمه أبوه يخفض عينيه. كان يستاء، دون ريب، من المقارنة الدائمة بينه وبين هابيل، وحتى بينه وبين الكلب الذكي والوفي الذي ورث عنه الاسم. وكان يبدي نحو حواء لفتات رقيقة تعوض عن صمته. يأتيها بأشد ثمار الكمثرى حلاوة، ونتاج سعيه الدؤوب لتكثير النباتات بمقاطعة بعضها ببعض وسقايتها بماء الينبوع عبر قنوات يشقها بيديه. وكان قايين ولولوا يحصدان زراعات هجينة غريبة تجربها حواء وأكليا، وقد سببت لهما المرض أكثر من مرة. وإذا كان قايين ولولوا يأتيان دون صخب بسلالهما المترعة بالخضار، كان مجيء هابيل إلى المغارة صاخباً على الدوام: يأتي حاملاً حليب الماعز التي تتبعه في قطعان وديعة، ويصطاد غزلاناً، ويرعى خرافاً،

وكان قد دجن مزيداً من الكلاب، بل إنه كان يسعى جاهداً لجعل طيور مثل الصقر تشاطره طرائدها. كان من الصعب مقاومة طيبة هابيل البريئة. وكانت حواء واثقة من أنه لم ينتبه بأي حال إلى غيرة أخيه. كان عالم هابيل بسيطاً وهادئاً. وكان يحظى بتأييد أبيه الدائم وملاطفته، وبمرافقة الحيوانات. يقضي الأيام باسماً، يجوب الغابات في ما وراء النهر، ويعود بقصصه مع حلول الليل. كان قايين مستاء من طرد ألوكيم لأبويه من الفردوس. أما هابيل بالمقابل فكان يسعى إلى كسب رضاه. فيترك قرابينه على الصخرة التي لم يتوقف آدم عن وضع أولى ثمار عرق جبينه للآخر عليها.

ـ هابيل بسيط. سيكون أحسن حالاً مع أكليا. صحيح أنها غير جميلة، ولكنها قادرة على التكهن بمتطلبات العالم. لقد استطاعت صنع صنانير صيد من عظم الغزال، وإبر من حسك الأسماك. وهي تفكر أكثر من لولوا ـ كانت حواء تلح.

ـ إذا كنتِ لا تهتمين كثيراً بقايين، فعليك أن تعلمي أن أكليا تحبه هو وليس هابيل.

ـ ستتوصل إلى محبة هابيل. فمن السهل الوقوع في حبه.

ـ لم أقل إنها لا تحبه. ولكنها تفضل قايين.

ـ متى تظن أنهم سيبدؤون النظر إلى بعضهم بعضاً مثلما جرى لنا بعد تناولنا ثمرة الشجرة؟

ـ لا أظن أن ذلك سيحتاج إلى وقت طويل يا حواء.

ـ هل لاحظت أن صدريّ أكليا ولولوا يكبران؟

ـ أجل. وعندما تنزفان عما قريب سنقدم كلاً منهما إلى بعلها.

22

كان قد مضى وقت طويل على آدم وهو يغرس أوتاداً متقاطعة عند مدخل المغارة ليحول دون دخول الحيوانات ومهاجمتها لهم. وهو ما يمكن، مع ذلك، أن يحدث في أي يوم. فهم أكثر عدداً الآن. يخزنون أطعمة ويطبخونها. ورائحة حيواتهم تطفو بعيداً. ولسوف يتعرضون للخطر عندما يعود البرد ويشح الطعام. لقد حان الوقت ليخرجوا من هناك. انهمكوا في البحث عن مغارة أخرى. كانت هناك كهوف كثيرة في التكوينات الصخرية المحيطة، ولكن المغارة التي يحتاجون إليها يجب أن يكون لها مدخل فسيح يمكن لهم أن يحفروا خندقاً أمامه. وسيجعلون الدخول إليه ممكناً لهم وحدهم بالسير على جذوع يرفعونها في الليل.

إنها فكرة قديمة، قالت حواء. فهكذا حال إلوكيم دون عودتهم إلى الفردوس... بالخندق.

سيقيمون خندقهم.

وجدت أكليا وحواء مغارة تتوافق من مقاصدهم. كانت فسيحة، مرتفعة السقف وفي أعلاها فتحة يمكن لدخان الموقد أن يخرج منها.

ووجد قايين جذوعاً يمكن حفر الأرض بطرفها المدبب. وحدد آدم عرض الخندق الذي سيحفرونه.

كان قايين ولولوا قويين. وكانا يحفران معاً، جنباً إلى جنب،

دون هوادة. وكان هابيل وأكليا يحاولان مجاراتهما. وقد اضطرت أكليا إلى الاستسلام. ولكن هابيل لم يتراجع. إنه يريد أن ترى لولوا أنه لا يقل قوة عن قايين، هذا ما فكرت فيه حواء وهي تراقبهم. ما الذي يرمي إليه إلوكيم بجعل واحدة من ابنتيها أجمل كثيراً من الأخرى؟ ولماذا للجمال كل هذه السطوة؟ إنها تستطيع رؤية هابيل وآدم يتابعان حركات لولوا، ويتوقفان عند استدارة ردفيها، ساقيها الطويلتين، ذراعيها، صدرها. ولم تكن هي نفسها قادرة على عدم الإعجاب بالجسد المرن وهو يعلو وينخفض ليحفر الأرض. كان آدم واعياً لحضور حواء التي تستريح للحظات تحت شجرة. فكان ينظر إلى ابنته بطرف عينه، ويسرع في صرف بصره عنها خجلاً مما يمكن أن يكون قد فكر فيه. ودون خبث، لم يكن هابيل يخفي افتتانه. رأت حواء قايين يتوقف فجأة، ويمسك بذراع لولوا ويدفعها لتقف أمامه. وتمكنت، من حيث كانت تجلس، من رؤية ابنها يواجه أخيه متوعداً. رأت هابيل ينظر مرعوباً إلى الأب. فأرسل هذا لولوا لتستريح إلى جانب حواء. لستُ متعبة، قالت. ليس مهماً، أجابها آدم. اذهبي إلى حيث أمك.

جلست لولوا بجوار أكليا التي كانت تحوك حصيراً من نباتات متسلقة. لولوا متوحدة. انتبهت حواء إلى أنها منذ طفولتها كانت محاطة بجو خفي يعزلها عن الآخرين. لقد كانت طفلة باهرة الجمال، ولكنها كلما كبرت كان جمالها يزداد، مثل الهاوية التي فصلت بينهما هما وبين الجنة.

لا وجود لشيء في الطبيعة، ولا بين الحشرات، ولا المناظر، ولا النباتات ما يثير في القلب انبهاراً كالذي تُحدثه لولوا دون أن تفعل شيئاً آخر أكثر من مجرد وجودها. إنها أجمل منكِ، اعترف وهو يقول

لها إنه لم يخطر له قط من قبل أنه قد يوجد مخلوق يدانيها في الجمال. وكانت حواء تعتقد، حتى وقت قريب، أن لولوا تمتلك البراءة نفسها التي لدى هابيل، براءة مطلقة ونبيلة، غير قادرة على تصور التعقيد الذي يعذبهم.

كان من السهل الإحساس بأن ثمة عجرفة في السذاجة التي يؤمن بها هابيل بطيبة العالم الفطرية، وسعادته الدائمة، ومفاجأته حيال ما يعتبره الآخرون عصياً على الفهم أو مثيراً للشكوك أو فاسداً.

في الجنة، كانت الحيّة قد قالت لها إن إلوكيم لا يريد لهما، هي وآدم، أن يحرزا المعرفة كي يظلا وديعين مثل الهر والكلب. هكذا كان هابيل، رجل عذب، مخلوق وديع، بسيط مثل طفل.

ولكن لولوا لم تكن مثله مهما رغبت في أن ينظروا إليها بالطريقة نفسها. فقد كانت تعي سلطة مظهرها المشع. وممارسة تلك السلطة كان جزءاً من كيانها، ومما يجعلها مختلفة. ولكن حواء لم تكن متأكدة مع ذلك من أن لولوا تدرك تماماً ما تخلفه من تأثير على أخويها، وحتى على آدم نفسه.

كانت أكليا تتشح بعباءة حاكتها من الصوف. بينما كانت لولوا تضع قطعة صغيرة من الجلد مربوطة على خصرها.

ـ عليكِ أن تغطي جسدك يا لولوا ـ قالت الأم ـ. فأنت لم تعودي طفلة. إنك تهيجين أخويك، وحتى أبيكِ.

ـ لستُ المذنبة في كوني ما أنا عليه ـ قالت لها.

ـ أعرف ذلك.

ـ ألا أنظر أنا إليهم ولا أهتاج؟ هم من عليهم الاهتمام بأنفسهم.

صمتت حواء. فلولوا قليلة الكلام. وعندما تتكلم تكون حاسمة.

ـ لولوا على حق ـ قالت أكليا ـ لماذا يهتاجون هم ونحن لا نهتاج؟

ـ أنت تريدين من قايين أن يهتاج من أجلك، أليس كذلك يا أكليا؟ ـ قالت لولوا.

ـ هل هذا صحيح يا أكليا؟ ـ سألتها الأم.

ـ لقد شعرتُ على الدوام بأنني أقرب إلى قايين ـ قالت أكليا ـ إنه أقل كمالاً من هابيل. وأنا أقل كمالاً من لولوا.

ـ ولكن قايين هو توءمي أنا ـ قالت لولوا ـ. إنه لي وأنا له.

ـ هابيل لا يصوب إليّ مجرد نظرة ـ قالت أكليا ـ. أما قايين فيأتيني بالثمار وأصناف الجوز.

ـ هابيل لا يرى إلا إلى نفسه. إنه لا يحتاج إلينا. لا يحتاج إلى أحد ـ قالت لولوا.

ـ إنه طيب ـ قالت حواء ـ. إنه سعيد.

ـ لا يتشكك أبداً ـ قالت لولوا ـ ولا يسأل عن أي شيء. إنه وحيواناته يتفاهمان على أحسن وجه.

صمتن. ونظرت النساء الثلاث إلى الرجال الذين كانوا يواصلون الحفر.

هل صحيح أنهم هم وحدهم من يهتاجون؟ لولوا وأكليا مازالتا فتيتين لا تعرفان ذلك، أما هي فكانت تشعر باندفاع جسدها عندما يحتضنها آدم في الليل. كان قربه منها، مع ذلك، هو الذي يسبب لها ذلك التأثر. أما مجرد رؤيته فلم تكن كافية. صحيح أنها تظن أن آدم جميل، وأنها معجبة بحجم ذراعيه، واتساع صدره وقوة ساقيه، ولكن عينيه، الطريقة التي ينظر بها إليها هي ما تحوّل النهار أو الليل إلى فرصة مناسبة لأن يلوذ أحدهما داخل الآخر وليجدا، في عزلة منفاهما، عزاء وجودهما معاً. مما لا شك فيه أن الرجال يبدون أكثر قابلية للتأثر. فالجمال بذاته يتحدث إلى أجسادهم. ورؤيتهم ينظرون

إلى لولوا، تبين غربة كل منهم عن الآخر، وأنهم تحت سيطرة غريزة تدفعهم إلى تنازع الطريدة. كيف نفهم أن الجمال يثير قلقهم بهذه الطريقة بدل أن يرسخ فيهم الرغبة في الاحتفال به؟ وفكرت حواء في أنه عليها أن تسأل آدم عن ذلك. فمن المؤكد أن هابيل لن يعرف الرد على سؤالها. وربما قايين كذلك. أيكون جمال لولوا هو السبب أم أن هناك سبباً آخر؟ أيكون السبب في الشمس، في القمر؟ إلى أين سيصل ذلك كله؟ ما الذي سيحدث عندما سيقول آدم لقايين إن لولوا ستتكاثر مع هابيل.

حلمت حواء بالحيّة. رأتها واقفة إلى جانب الشجرة، مثلما كانت تقف قبل أن تبدأ الزحف، بجلدها الذهبي الممتلئ بالحراشف، ووجهها المسطح، والريش الناعم على رأسها.

- هل عفا عنكِ إلوكيم؟ - سألتها.

- إنه يسامحني في الأحلام.

- بماذا يحلم؟

- يحلم بأنه نادم. يخشى...

- أن يجعلنا سعداء؟

- القلق. البحث. التحديات.

- قلتِ إن إلوكيم تركنا وحيدين ليتأكد مما إذا كنا قادرين على العودة إلى نقطة الانطلاق. ألن نكون سعداء إلا عند بلوغنا ذلك؟

- الزمن عند إلوكيم طويل جداً.

استيقظت حواء. لم تشأ الاستيقاظ. أغمضت عينيها. متى، أخبريني متى سنعود؟، سألت في الظلام. ولم يردّ عليها أحد.

23

تطلب منهم الحفر قمرين كاملين. وفي القمر الجديد الثاني نزفت إكليا ولولوا. احتضنتهما حواء. هدأتهما.

- لا أعرف سبب حدوثه، ولكن بعد الدم يأتي الأبناء.

روت لكل منهما عن ولادتها. وفهمت أكليا ولولوا أن الثقب الأسود هو ذاك الذي في منتصف بطنيهما. ظنتا أنه السرة. ولم يكن له وجود عند آدم أو حواء. سألتاها: كم عليهما أن تنتظرا لتنجبا أبناء؟ وما الذي يساهم فيه الرجال من جانبهم؟ ولماذا يشبه هابيل وقايين آدم؟

ابتسمت حواء. إنهما تريدان معرفة كل شيء.

كان الوقت مبكراً. وكان موسم الأمطار والبرد قد بدأ. وقد ذهب الرجال وحدهم بحثاً عن جذوع أشجار لتجهيز المعبر فوق الخندق. استبقت حواء ابنتيها. جلست معهما على جلد الدبة. سعّرت النار. فكرت في الكلمات التي ستخبرهما بها ما عليهما أن تعرفاه.

قالت لهما إنها كانت داخل آدم قبل أن يأكلا ثمر شجرة معرفة الخير والشر، ولكن آدم لم يكن في داخلها قط قبل ذلك الحين. ولم يشعرا بحاجة كل منهما إلى الآخر إلا عندما لم يعودا خالدين. لقد أضطرهما الموت إلى نمط آخر من الخلود، خلق من سيحفظون ذكرهما ويواصلون ما بدأاه. فقد قال إلوكيم إنهما من تراب وإلى التراب سيعودان. ولكنه أمرهما كذلك بأن ينموا ويتكاثرا.

وواصلت القول إنها لا تعرف إذا ما كان الأمر نفسه ينطبق على ابنتيها. أما هي، فقد اجتاحتها ذات يوم رغبة عميقة في الإحساس بآدم في داخلها.

ـ امتلأ جلدي بعيون وأيدٍ ـ قالت ـ. أردت أن أرى أعمق الأعماق، أن ألمس الهواء المحفوظ داخل آدم، وأن أتنفسه. أردت أن أفهم جسده وأن يفهم هو جسدي. أردت طريقة أخرى للقول تكون أكثر يقيناً من الكلمات، طريقة في التكلم مثل الهرّ الذي يتمسح بسيقاننا لنعرف أنه يتعرف إلينا. وكان أبوكما يشعر بالشيء نفسه. بدأنا بملاصقة فمينا، لسانينا، لأن ما نقوله يخرج من هناك. ارتدنا اللعاب والأسنان، وفجأة تلبستنا لغة غير معروفة. كانت لغة حامية، كما لو أننا أشعلنا ناراً في دمائنا، إنما لم يكن لكلماتها شكل. بدت أشبه بأنين مديد، دون أن نشعر بأي ألم. لقد كانت زفرات، زمجرات، وما أدراني أية أشياء أخرى. امتلأت أيدينا بالإيماءات، بالرغبة في أن نرسم أشياء غير مفهومة في جسدينا. وفي أثناء ذلك كان عضوي قد امتلأ بالبلل. ظننت أنني أبول، ولكن البلل لم يكن شبيهاً بالتبول. وعضو آدم، ذاك الذي يتدلى بين سيقان الرجال، كبر كثيراً. كان مثل يد مصوبة نحو منتصف جسدي. وأخيراً أدركنا أن ذلك الجزء منه يجب أن يتوغل فيّ كي نعود للاندماج. تألمتُ حين دخل في جوفي الرطب. فكرت في أنه لن يتمكن من الدخول، ولكنه استقر مضغوطاً. كان الإحساس غريباً في البدء. بدأنا نتحرك. وظن آدم أنه سيتمكن من الوصول إلى قلبي. كان يتوغل باحثاً عن أعماقي. اهتززنا، مثل اهتزاز البحر على الشاطئ. وأحسست بعد ذلك بأن بطني يريد أن يُطبق على يده تلك، أن يضغط عليها، أن يخرج للقائها. ظننت أنني لن أتمكن من تحمل المزيد من

تلك الأحاسيس. عندئذ انتشر وميض في ساقيّ، وصعد عبر البطن، الصدر، الذراعين، الرأس. وارتعشتُ بكاملي بعد ذلك مثلما تهتز الأرض عند نزول الصواعق. وقال آدم إن الأمر بالنسبة له كان فيضاناً، نهراً يخرج مندفعاً وينسكب فيّ. وقد ارتعش هو أيضاً ـ قالت حواء مبتسمة ـ وصرخ. وأظن أنني فعلت الشيء نفسه. هذا هو كل شيء. وبعد ذلك غلبنا النعاس واستغرقنا في النوم.

فعلنا ذلك مرات كثيرة بعد أن صرنا نعيش هنا، في هذه المغارة، بعيداً عن الفردوس. هكذا كنا نسلي نفسينا. فقد كسبنا شيئاً بعد فقداننا خلود الجنة. إننا نسميه حباً. وفي ممارسة هذا الحب كان آدم يمتزج بكما، وبقايين وهابيل. وأظن أنهما بسبب ذلك يشبهانه.

استغرقت أكليا ولولوا في التفكير. وكانتا تستمعتان إليها بأنفاس محبوسة. لقد شرحتُ لهما بأبسط طريقة، هكذا فكرت حواء وهي تخشى ما سيلي ذلك، السؤال الذي لن يتأخر طويلاً: ومع من سنمارس الحب نحن؟ قالتا، وهل سيشبه أبناؤنا قايين وهابيل؟

24

ظنوا أن لا أشياء كثيرة ينقلونها من المغارة إلى الملجأ الجديد، ولكن المرأة والرجل، والابنين والابنتين، في تقدمهم على حافة السهل، كانوا أشبه برتل من النمل.

كانت حواء تمشي ببطء، متخلفة. لم تتساءل كيف وافقت على ترك ذلك المكان المألوف الذي تخبئ أركانه ذاكرة حياتها، إلا بعد أن أعدت القواقع، والعظام، والأشياء الصغيرة والكبيرة المحيطة بها. أذهلها أن تجد في المخابئ الموزعة تحت الصخور أو في فجوات الجدران أنياب حيوانات، وأحجاراً من النهر مثقوبة، وهيكل سمكة عظمي، ونجمة بحر، وريشة من طائر الفينيق، وحبال سرّة أبنائها المتيبسة. رؤيتها كل ما كانت قد حفظته بدا اعترافاً بطول واتساع الزمن المنقضي مذ طردهما إلوكيم من الجنة. هيمنت عليها كآبة النظر إلى نفسها من بعيد، كما لو أن من تحفظ ذلك كله ليست إلا ذكرى لها هي نفسها. منذ البدء، وبينما هي تشير إلى أبنائها إلى ما يتوجب أخذه أو تركه، احتشدت في ذهنها صور الجلود المدبوغة، والأواني المطلية، والسهام والأدوات الحجرية، ودمى الصلصال البدينة والخصبة التي قولبتها من الطين أيام كانت تظل وحيدة وهي تشعر بأنها مثل بحر يوشك أن يُغرقها. فكرت في أنها لا تريد الذهاب. راودها هاجس أنه حين يسود الصمت ولا يبقى هناك سوى الرسوم على الجدران، فإن حواء التي عاشت هناك ستتلاشى مثلما تلاشت الجنة.

أرادت وقف النشاط المحموم، ولكن حماسة الآخرين كبحتها. كانوا يتلهفون لاختبار الملجأ الجديد، اجتياز الخندق الذي حفروه.

لحق بها آدم على الطريق. كان يحمل أكياس الجلد التي وضع فيها الحراب، وصنارات الصيد، ورؤوس السهام. لاحظ بطء خطواتها، وانحناء رأسها، واستياءها.

ـ يمكننا العودة إلى المغارة القديمة كلما أردنا ذلك.

ـ ولكننا لن نعود إلى هذا الزمن يا آدم.

ولماذا تريد العودة إلى هذا الزمن، قال الرجل، إلى هذه العزلة، إلى هذا التشوش.

ـ لا أدري ـ قالت ـ. ربما لأننا كنا أكثر شباباً. ربما لأن الأيام كانت تبدو أكثر جِدة وكنا نفكر في أنه يمكن لنا عمل ما هو أكثر من السعي إلى البقاء. إنني أشعر أحياناً بأننا لم نفعل غير ذلك.

فقال لها إن هذا هو التحدي في نظره: إثبات قدرتهم على البقاء.

البقاء من أجل أي شيء، قالت هي، ما هو المغزى من كونهم مختلفين عن الحيوانات إذا كانت هذه هي المسألة وحسب؟ وإذا كانت قد أكلت الثمرة المحرمة، فإنما فعلت ذلك لأنها فكرت في أن شيئاً أكبر سيوجد.

ربما يوجد شيء أكبر، والهدف هو اكتشافه، قال لها. فردت عليه بأن ما يقلقها هو عدم اكتشاف ذلك أبداً.

ـ إنك حزينة ـ قال آدم ـ. والحزن مثل الدخان، يحجب الرؤية.

وصلا إلى الملجأ الجديد. وانتقلت إليهما عدوى حماسة الأبناء. كان نتاج عملهم جيداً. فقد ربطوا بأليافِ نباتات متسلقة جذوعاً رفيعة كيلا يكون الجسر ثقيلاً جداً، ويتمكنوا من رفعه عند

الغـروب. وكانـت الحفـرة عميقـة بـصورة كافـية، والمغـارة واسـعة، وأكثر إنارة. صحيح أنه يمكن للحيوانات أن تحاصرهم، ولكنها لن تتمكن من الدخول.

لم يتطلـب الاسـتقرار وقتـاً طـويلاً. فقـد رتـب كـل واحـد مـنهم أشياءه. وكان مثيراً للفضول رؤيتهم يحددون أماكنهم، وكـل مـنهم يقوم بترتيب أدواته: الأحجار التي يشذبونها بمشقة ـ ولكنهم تمكنـوا شـيئاً فـشيئاً مـن شـحذها ــ، والعـصي ذات الـرؤوس المدببـة والحـادة للصيد، والأدوات التي يقطعون بها ويسلخون. كان لدى لولـوا خـرزات ذهبية تختزنها، وقش وألياف تصنع منها السلال. ولـدى أكليـا عظـام حيوانات تصنع منها شصوصاً وحتى أدوات لتمشيط العقد المجعدة فـي صـوف النعـاج. ولـدى هابيـل عـصي وعكـاكيز راعٍ، وعنـد قـايين الأدوات التي يُحدث بها ثقوباً فـي الأرض ليزرع ما يجمعه من بذور.

تحـول القمـر إلى الحمـرة فـي الليلـة الأولى الـتي أمـضوها فـي الكهف. دخل هابيل صـارخاً: الـسماء تأكـل القمـر. خرجـوا جميعهم راكضين. وفـي القبة الـسماوية رأوا القمر المكتمل وفماً أسـود يأكـل حافته. كان القمر ينفتح أكثـر فـأكثر، وفـم مـن دخـان يطفئ ذلـك البريق المستدير الشاحب والأعزل فـي وسـط الـسماء. أمـر لا تفسير لـه. إنهـا إشـارة، فكـر آدم. فلخشيته مـن التـسبب بـالغمّ لحـواء، لم يعمـل على تنفيذ مشيئة إلوكيم: هابيل للولـوا، وقـايين لإكليـا. وهـاهو الآن يأكل القمر. ستصير الليـالي أشـد سـواداً. نظـر إلى حـواء. وقـد لاحـظ شحوب وجهها على الرغم من الظلام.

ما هـذا؟ مـا الـذي يحـدث؟ كـان الأبنـاء يتـساءلون. وكانـت حـواء تشعر بألم فـي أعماقها.

لقد كان آدم على حق. ولتفكر هي ما شاء لها التفكير، ولكن لا يمكن لها أن تعارض مشيئة إلوكيم هذه المرة، لا يمكنها تجاهل أحلام الرجل بينما هي تتقبل في أحلامها أن ترى الحيّة وتتحدث معها. من المحال معرفة العقاب الذي سيُنزله بهم إلوكيم إذا ما عصوه من جديد، وإذا ما كانت هي من جديد من ترعى عصيان الرجل. ومع ذلك، وعلى مر الأيام، كان الهاجس المبهم بوقوع كارثة يتسع في جسدها. اتخذ القمر لون اللوز. كان ضارباً إلى الحمرة ومدوراً، يبدو كأنه موضوع فوق قاعدة مضيئة في أعلى سماء بدا سطحها اللامع فجأة أشبه ببحر.

- إنها سحابة - قالت حواء لتطمئن التوائم -. كما لو أن القمر يشعر بالبرد ويتدثر بسحابة.

اقترب آدم منها. أشار إلى السماء ونظر إليها بثبات. وفهمت هي ما يعنيه.

- افعل ذلك - قالت له - تكلم إليهما.

بعد قليل رأوا القمر يظهر من جديد من وراء الحجاب ذي اللون النحاسي. القمر البدر كاملاً. لقد نجا.

25

إلى الشمال، وبينما هو يتتبع أثر الجواميس، وجد آدم قبل بعض الوقت وادياً خصيباً تحيط به جبال، وفيه صيد وفير. سيأخذ ابنيه إلى هناك ويكلمهما، سيخبرهما أياً من أختيهما سيتخذ كل منهما رفيقة له. كانت حواء راغبة في حماية أكليا. فهي تخشى أن يرفضها قايين كبديلة للولوا. توسلت إلى آدم أن يسوي الأمر قبل عودته.

انطلقوا بعد بضعة أيام عند الفجر. خرجت حواء لوداعهم، مدارية غمها. مشت معهم إلى أن تلألأت عالياً الشمس. وفي البعيد كانت تُرى الجبال القاتمة تحت سماء الخريف المتجهمة. كانت أوراق الشجر الضاربة إلى الحمرة التي تغطي الأرض تتفتت تحت أقدامهم. وكانت مياه النهر تتدفق قاتمة، متسخة بالأمطار التي تجرف أتربة الضفاف وجذورها وأحجارها. وعندما افترقوا طلبت منهم حواء أن يرفعوا أيديهم عند وصولهم إلى حافة الوادي حيث تبدأ كثافة الخضرة. فهكذا تتمكن من رؤيتهم مرة أخرى من بعيد. لاحظت استغراب ابنيها المعتادين على وداعها لهما دون مثل هذا الحرص. وفكرت هي في أن قايين يتصور أنها تفعل ذلك من أجله. فليس من عادة الرجال الثلاثة الخروج معاً. ونادراً ما يطلب منه الأب أن يرافقه. لأنه يذهب عادة مع هابيل ويترك قايين يواصل طريقه معهما أو وحيداً للبحث عن فطور أو أراض خصبة يزرع فيها بذوره. وقد بدا سعيداً لأن أباه أخذه معه هذه المرة. وكان هابيل يمضي أيضاً رائق المزاج. إنه

يحب أخاه الكبير. وقد كان في صغره يمضي خلفه على الدوام ويقلده. وكثيراً ما كانت تنتهي محاولاته اللحاق به إلى حوادث طفلية لا يمكن تجنبها. وكان قايين يتحمل آنذاك غضب أبيه الذي يؤنبه لأنه لا يعنى بأخيه.

ظلت حواء تنتظر على بروز صخري إلى أن أومأ لها الثلاثة بالإشارة المتفق عليها واختفوا وسط الخضرة البعيدة.

جلست بعد ذلك على الأرض وأجهشت بالبكاء.

ـ حواء، يا حواء، احتفظي بدموعك.

كانت الحيَّة تجلس بجانبها. لم تكن تزحف. بل كان لها الشكل نفسه الذي رأتها فيه أول مرة في الفردوس.

ـ لقد حلمتُ بكِ ـ قالت حواء بدهشة ـ. لقد حلمتُ بك مثلما كنتِ من قبل، مثلما أنتِ الآن. هل عفا عنك إلوكيم؟

ـ أجل.

ـ وهل تظنين أنه سيعفو عنا أيضاً؟

ـ ربما يفعل ذلك.

ـ وماذا سيحلّ بأبنائي؟

ـ سيعرفون الخير والشر.

ـ وهل سيتألمون؟

ـ قلت لك إن المعرفة تؤلم.

ـ أنت تتكلمين دائماً بطريقة لا أفهمها.

ـ لا أعرف التكلم بطريقة أخرى.

ـ أخبريني ما هو الشر. هل الشر هو أنت؟

ضحكت الحيّة.

ـ أنا؟ لا تكوني مضحكة. الشر، الخير، وكل ما هو كائن وما سيكون على هذا الكوكب، سيحدث هنا بالذات: فيكِ أنت، وفي أبنائك، وفي الأجيال الآتية. المعرفة والحرية هبتان استخدمتهما أنت يا حواء أول مرة، وعلى ذريتك أن تتعلم استخدامهما. كثيراً ما سيحملونك المسؤولية، ولكن وجودهم ما كان ليتحقق لولا هاتان الهبتان. ستطفو ذكرى الفردوس في دمائهم. وإذا ما تمكنوا من فهم لعبة إلوكيم ولم يقعوا في الحبائل التي ينصبها لهم، سيغلقون دائرة الزمن ويعرفون أن البداية قد تكون هي النهاية أيضاً. ولن يحتاجوا من أجل الوصول إلى هناك إلا إلى الحرية والمعرفة.

ـ أتقولين إننا نحن بأنفسنا من نخلق الخير والشر؟

ـ لا أحد غيركم. إنكم وحيدون.

ـ وإلوكيم؟

ـ إنه يتذكركم أحياناً وآخر، ولكن نسيانه طويل كذاكرته.

ـ إننا وحيدون.

ـ يوم تتقبلون ذلك ستكونون أحراراً حقاً. والآن، عليّ أن أنصرف.

ـ هل ستتلاشين مثل الجنة؟ ألن نلتقي مرة أخرى؟

ـ لا أعرف.

ـ أن أظن ذلك. لا أظن أنك ستنسينني.

ـ تقبلي وحدتك يا حواء. لا تفكري فيَّ، ولا في إلوكيم. انظري حولك، استخدمي مواهبك.

اختفت الحيّة فجأة في هواء الأصيل. وقفلت حواء راجعة. كانت تهب رياح قوية. إن عاصفة تقترب. تساءلت إذا ما كانوا سيتحملون واقع بقائهم وحيدين. أيكونون وحيدين جداً؟ تذكرت الجلود التي

استترا بها عند الخروج من الجنة، والرياح التي أنقذتهما من الموت عندما ألقيا بنفسيهما من الجبل، والقمر الجديد الضارب إلى الحمرة والمختفي، لماذا تلك الإشارات؟ أيكون ما تريده الحيّة هو أن ينسيا إلوكيم؟ صحيح أنه إذا كانوا وحيدين فليس على أحد سواهم واجب معرفة الخير والشر، وتعلُّم العيش دون انتظار شيء لا يتدبرونه بأنفسهم، وتحديد هدف وجودهم دون عون من أحد. ربما تكون هذه هي الحرية التي تتكلم الحيّة عنها. وإذا كان إلوكيم قد حثهم على استخدامها كي ينساهم وينصرف إلى خلق عوالم أخرى، فإن معرفة كل ما جرى حتى طردهما من الجنة هو عطاء وليس عقاباً؛ إنه دليل ثقة بأنهما هما وكل من سيتحدرون منهما ويعمرون تلك الامتدادات الشاسعة سيجدون بأنفسهم طريقة في العيش تشغلهم عن يقين الموت. ولكن كيف تُفسر الأوامر؟ قايين مع أكليا، وهابيل مع لولوا؟ كيف ستعيش الحرية إذا كان عليهم التصرف خلافاً لمشيئة قلبهم والانصياع لمقاصد يجهلونها؟ لماذا مواجهتهم على الدوام بهذه الخيارات، الطاعة أو عدم الطاعة، والعقاب؟ وفكرت حواء: لا، لسنا وحدنا. ولو كنا وحدنا لكان خيراً لنا.

رجعت إلى المغارة. كان رذاذ مطر خفيف يهطل. وجدت لولوا وأكليا تصنعان من السعف سلالاً لجمع الثمار. كان صمتاً محملاً بالهواجس يثقل عليهما. فدون أن تكون حواء أو آدم قد أخبراهما بأي شيء، كانت أكليا ولولوا تدركان أن رحلة الأب والابنين ليست مجرد رحلة صيد. فقد نزفتا. إنهما امرأتان. والحياة فيهما تنتظر.

متى سيرجعون؟، سألتا. لن يتأخروا، قالت حواء. وكانت تشعر بما في قلبي ابنتيها كما لو أنه في قلبها، ولكنها لم تتجرأ على تنبيههما إلى ما سيأتي. كانت تصوغ الكلمات، تمضغها، تشعر بها

تتحرك في فضاء فمها، ولكن شيئاً فيها يمنعها من النطق بها. إنها تريد لهما أن تظلا خفيفتي الجسد، وأن تؤجل عليهما الألم، تريد أن تطيل ما أمكن النسيج الحامي الذي لف حياتيهما حتى ذلك الحين، والذي ستمزقه تلك الكلمات فور التلفظ بها. لم تتصور قط أنها ستعاني ألماً أعظم من الذي أحست به عند ولادة أبنائها، ولكن ألم تلك الأيام الذي يخترق الهواء الذي تتنفسه لا يقل قسوة عن الألم المحفوظ في ذاكرتها. ومعرفتها أن ابنتيها ستعانيان وأن قدرتها على التخفيف عنهما ستكون ضئيلة كان اختناقاً مؤلماً في صدرها. كانت تراهما في أحلامها وراءهما شفير هاويات سحيقة، وأنهار مائجة، وحرائق. وتحلم بأن صوتها يختنق في حنجرتها كلما حاولت تنبيههما إلى الخطر، إلى الهاويات، إلى الوحوش الضارية.

26

مرت الأيام. ذهبت حواء إلى النهر بحثاً عن أسماك وسرطانات. كانت الأوراق قد بدأت تشحب على الأشجار، والجو يعبق برائحة تراب مبلل، ويطفو فوق المشهد هواء كئيب لصيف يحتضر. جلست القرفصاء عند الضفة ومعها سلة السعف بانتظار أن تقترب الأسماك. نظرت إلى بريق الماء، إلى شفافيته، إلى زبد التيار في الدوامات المتشكلة عند حواف الصخور. وفكرت في أنها ربما تبالغ في قلقها. ما الذي أصابني؟، فكرت. إنها لا تتذكر يأساً مثل هذا. لماذا لا تأمل أن يرضى كلٌ من ابنيها برفيقته؟ إنهم متحابون. وهم أخوة. عليهم ألا يفترقوا وألا يتخلوا عن حب بعضهم بعضاً. ولأنهم لم يعرفوا بعد حميمية الأجساد، فربما سيتحملون ذلك دون أن يشعروا بالألم الذي تتوجس منه. ربما أنها هي، لمعرفتها عمق رغبتها بآدم، تتصور أن الحال هو نفسه عند قايين ولولوا، ولكن هابيل لن يتخلى عن رفيقته. وأكليا تفضل قايين. ومهما حاولت أن تقنع نفسها لم تتمكن من تصور لولوا وقايين يتجاهلان الغريزة التي أبقتهما متضامنين منذ طفولتهما.

سُمع وقع خطوات على الأوارق اليابسة. إنها الحيّة، فكرت وهي ترفع رأسها. ولكنه كان قايين.

لقد جاء ممتلئاً بالكلمات. كل كلمة منها بثِقل حجر مشحوذ. يطلقها رشاً دون أن يلتقط أنفاسه بين كلمة وأخرى. السخرية، والتأثر، والكثافة الجارحة في ما يقوله كانت جديدة في هواء الأرض.

وتساءلت: أين وجد قايين هذه الطريقة في تسميم لعابه؟ خرجت من الماء حاملة السلة التي كانت تتحرك فيها سمكتان. شدّت ظهرها ونظرت إليه بعينين مفتوحتين، كانت نبضات قلبه تدوي في مسمعها. بدا لها أنه تحول إلى صخرة. فكل شيء فيه قاسٍ. كان وجهه قاسياً، وفمه معوج، عريض، كما لو أن الكلمات تشغل حيزاً أكبر مما تتمكن أسنانه من استيعابه. كان يتكلم عن الضرب، التمزيق، السحق، الدفن. ويتهمها بأنها هي السبب في ولادته لأنها أكلت ثمرة التين، وخسرتِ الجنة كي تتركي آدم يحب هابيل وحده. الأبله هابيل. ولم يكن صوته يهدأ إلا حين يذكر اسم لولوا، وما إن يعي التأثير حتى يتوقف ليستعيد نبرة السباب وليصف، دون بصيص من الأخوة، ضآلة وجه أكليا وغرابته، وأنها مهما عاشت لن تجد بين أبنائها من هو أقل جمالاً منها. سماعه يقول كل ما قاله عنها أخرج حواء من صمت مفاجأتها المتألمة.

ـ انصرف إلى المغارة القديمة يا قايين، ولا ترجع إلا عندما تأتي لطلب الصفح مني.

منتصبة، بيد تشير إلى البعيد، ومتأججة بالألم والغضب، رأته يجبن أمام نظرتها الثابتة. سمعت وقع خطواته على الأوراق اليابسة حين أولاها ظهره وانصرف ضارباً بعصاه التي في يده الأحجار والأغصان وكل ما يصادفه في طريقه.

قرار آدم، ومشيئة إلوكيم، زعزعا ككارثة نسيج وجودهم الحميم. صراخ، بكاء، نظرات أكليا التائهة، صمت هابيل المرعوب هو ما وجدته حواء عند عودتها من النهر. وكان آدم يتنقل من جانب إلى آخر مختنقاً وهو يقول:

ـ غضبه ذكرني بقتلي الدبة بيدي. انقض قايين عليّ. وبعد ذلك اندفع نحو هابيل. مثل أعمى. لم يفعل هابيل شيئاً. غطى وجهه بيديه. وكان عليّ أن أُبعد قايين عنه. وانتهيا كلاهما إلى البكاء. خرج

قايين راكضاً إلى هنا. أما هابيل فلم ينطق بكلمة واحدة. لم يقل شيئاً طوال الطريق حتى وصولنا إلى هنا. أنا تكلمت، شرحت له. وكان ينظر إليّ فقط. كان وضعاً رهيباً.

أخرجته حواء من المغارة. قادته إلى صخور تحت مجموعة من أشجار نخيل تنمو بجوار ملجئهم الجديد. كانت لا تزال ترتجف، يسيطر عليها الغم والاستياء. جلست مسندة ظهرها إلى حجر. لم تكن تعرف كيف تتكسر العظام، ولكنها تشتبه بوجود عظام غير مرئية يمكن لها أن تتكسر وتوهن المرء.

- ما الذي سيحدث يا آدم؟ هذا أشبه بعقاب آخر.

- علينا طاعة الأمر. رأينا الإشارة في السماء. وأنتِ وافقتِ.

- لقد فقدنا الفردوس. ما الذي سنفقده هذه المرة؟

- لا أدري يا حواء. يمكن أن يكون هذا هو الاختبار لأبنائنا. إلوكيم يريد أن يختبر حريتهم، وأن يعرف إن كانوا يطيعونه.

- لا أرى أية حرية هي هذه.

هزت حواء رأسها. غطت وجهها بيديها. لم يكن بمقدورها البكاء. تريد حماية أبنائها. لم تستسلم للتفكير في أن ذلك قد يكون مكيدة لجعلهم يفقدون البراءة. الحرية هبة، هذا ما قالته الحيّة. ولكن يبدو أن إلوكيم نفسه لا يفهم الحرية. يريدهم أحراراً، ولكنه يقيدهم بتلك الأوامر التي لا يمكن فهمها. ممَ هو مصنوع؟ تساءلت. أهو مصنوع من شكوك مثلنا؟

- ماذا سنفعل يا آدم؟ كيف سنُهدئ غضبه؟

- الزمن يا حواء. قايين وهابيل أخوان. وسيفهم قايين أن القرار لم يتخذه هابيل - قال آدم - سيكون عليه أن يفهم أن هناك دماءً يجب

ألا تختلط. سأرسلهما ليقدما القرابين معاً. أنتِ وأنا علينا أن نبين لهما أنه لا بد من المصالحة، وأن يتفهما مقاصد إلوكيم.

- مثلما فهمناها أنا وأنت؟ - سألته حواء ساخرة.

لم يكن قايين قد رجع في اليوم التالي.

- سأرسل أكليا للبحث عن قايين - قال آدم.

- لا! لا ترسل أكليا - قفزت حواء - أخشى أن يُلحق بها الأذى. سأُرسل لولوا. فهو يصغي إليها. وتبادل الحديث سيكون جيداً لكليهما.

طلبت حواء من لولوا أن تنهض من الركن الذي كانت تتكور على نفسها منذ الليلة الفائتة، ساقاها ملتصقتان بصدرها، ووجهها بين ركبتيها، وهي تبكي. نظرت إليها. إنها فتية. هيئتها وتقاطيعها تنسى الطفولة، وجسدها يتلعثم بلغة جديدة. تساءلت عما يشعر به أبناؤها وكيف سيكون هذا الانتقال إلى بداية النضج الذي لم تعرفه هي وآدم. ولكن ما تعرفه هو مدى جموح تلك الرغبة في عدم الانصياع لأسباب لم تتوصل إلى تفسيرها. وقد كانت تعرف النتائج أيضاً.

- اذهبي لإحضار قايين يا لولوا.

انفجرت أكليا بالبكاء. وكان يُقرأ في وجه هابيل المفزع ضيق مكتوم.

انطلقت لولوا بحثاً عن قايين. خرجت في منتصف النهار ورجعت معه عند الغروب. ساعات طويلة. نظرت حواء إلى وجهيهما الخاليين من الأسى. وفكرت، لقد ارتكبا المعصية هما أيضاً.

جثا قايين أمام حواء. طلب منها الصفح. فعانقته حواء. ضمته بقوة إليها. وفكرت: ماذا ستكونه عقوبتك؟

27

أمر آدم ابناه أن يهيئا هداياهما التي سيقدمانها قرابين لإلوكيم.

لم يشأ قايين الخروج لجمع هديته مع أكليا. وعندما خرجت لولوا مع هابيل كان هو مقرفصاً يرتب أدواته. انتبهت حواء إلى النظرات المتبادلة. رأت ذراع قايين يتوتر، ويده تضغط على الحجر.

المذبح الذي اعتاد آدم وضع قرابينه عليه كان موجوداً على مقربة من المغارة القديمة، إلى الجنوب من الجبل الذي ينتصب متوحداً وسط السهل الضارب إلى الحمرة.

أسرع قايين. فقد سبقه أخوه الذي انطلق قبله، ولكنه يعرف هابيل، ويعرف أنه سيتأخر طويلاً في الاختيار بين نعاج قطيعه. توجه إلى البستان الذي زرع فيه يقطيناً. قطف أول يقطينة رآها، وأضاف إليها حزمة قمح وعنقود عنب. فعل ذلك كله بتعجل ووصل إلى المكان بالضبط في الوقت الذي كان فيه هابيل ولولوا يقتربان. كان أخوه يحمل نعجة مذبوحة على ظهره. أفضل نعجة لديه بكل تأكيد. إنها نعجة بديعة وسمينة، وكان دم الذبيحة يلطخ عنق هابيل وصدره.

وقف قايين أولا قبالة المذبح الذي أقامه آدم. ووضع قربانه عليه. تقدم هابيل وحاول وضع نعجته إلى جانب هدايا أخيه، ولكن هذا قطع عليه الطريق.

ـ متأسف يا هابيل. عليك أن تجد مكاناً آخر لقربانك.

ـ ظننت أننا نفعل ذلك معاً.

ـ إنك مخطئ.

ـ ولكن يوجد متسع.

دفعه قايين. شدّ الجانب الأيمن من جسده وهاجم بقوة جعلت توازن الآخر يهتز.

ـ قايين! ـ هتفت لولوا.

ـ اصمتي أنتِ ـ صرخ بها قايين.

نظر هابيل إلى أخيه من أعلى إلى أسفل غير مصدق ما يحدث، ثم ابتعد جانباً وبدأ يجمع أحجاراً ليصنع مذبحه الخاص. كانت خراقة حركاته تكشف عن ذهوله واستيائه.

ظل قايين يرصد أخاه بطرف عينه. وكانت لولوا تجلس على إحدى الصخور منحنية الظهر، واضعة يديها على خصرها بينما قدمها تتحرك بعصبية راسمة خطوطاً على الأرض.

أنهى هابيل خلال وقت قصير المذبح المرتجل الذي وضع عليه النعجة. ثم جثا على ركبتيه، وظل ساكناً ومغمض العينين.

جثا قايين أيضاً. سمع قلبه يخفق في ذراعيه وفي ساقيه، كان مهتاجاً بغضب يملؤه بالكامل ويمنعه من التفكير والصلاة.

كانت السماء القاتمة تنذر بوابل مطر غزير. نظرت لولوا إلى السحب السوداء والملبدة في الأفق. أحست بالريح ترفع جبهتها وتهب بين الأشجار.

وفجأة أبهر أبصارهم وميض برق. شموا رائحة لحم محروق. لقد سقطت الصاعقة على نعجة هابيل بالضبط، والتهمتها.

لم يبق على الحجر سوى شبح الحيوان وكومة من الرماد الأسود.

نظر هابيل إلى قايين. ابتسم بغبطة.

ـ تبارك إلوكيم ـ قال بصوت عالٍ وسجد.

فلتحل عليك اللعنة يا إلوكيم، فكر قايين، فلتكن ملعوناً. إنك تفضل أخي عليّ، مثل أبي.

لم يكن قد سمع صوت إلوكيم قطّ. وعندما سمعه فجأة يتردد في رأسه بدأ يرتجف. سمع النداء بوضوح: لماذا تلعنني يا قايين، ولماذا أنت حزين؟ لو أنك لطيف وعادل لتقبلت قربانك أيضاً. وعندما تلعنني إنما تلعن نفسك.

خرج راكضاً، خجلاً وحزيناً. لم يتوقف إلا عند وصوله إلى حيث حواء. لاذ بصدرها مثلما كان يفعل وهو طفل.

ـ لقد كلمني الصوت. لقد كلمني الصوت ـ كان يكرر ـ وقد سمعته يا أماه، سمعته.

احتضنته حواء. هدأته. كان اضطراب قايين تمزقاً في قلبها. جميع أبنائها الآخرين يظنون أنهم سمعوا صوت إلوكيم ذات يوم. جميعهم باستثناء قايين. وبعد أن سمعه الآن، ترى أنه، إلى جانب الرعب، سيشعر بأنه قد أُخذ بالاعتبار. وآدم الذي نزل للتو إلى المغارة، عرف بما حدث من حواء. رأى قايين بين ذراعيها. وقبل أن يأتي، رأوا هابيل ولولوا يدخلان إلى الملجأ، ينزلان الأدراج متعجلين. قفز قايين منفصلاً عن ذراعي أمه، وقف جانباً وظهره مستند إلى الجدار والتجهم في وجهه. لم يكن هابيل قادراً على كبح تأثره.

لقد أخذ إلوكيم قربانه ملفوفاً ببرق مضيء، قال مبتهجاً. ثم هتف: لا بد أنكم رأيتموه. فمن النعجة التي وضعها على حجر التقدمات لم يبق سوى الرماد.

لم تقتصر لولوا على تأكيد ما يقوله هابيل، بل روت المشادة بين الأخوين. وأنبت قايين. فليس هكذا يتم التوصل إلى تفهم إلوكيم، قالت. لمعت عينا قايين في الظلام. تكتم على نفسه. صمت. تركهم يحتفلون بهابيل ويؤنبونه هو. كانت أكليا تنظر إليه بطرف عينها. حاولت الجلوس إلى جانبه، وإمساك يده. فأبعدها بضربة من يده لم ينتبه إليها أحد سواها.

لم ينم قابيل في تلك الليلة. هام على وجهه في محيط المغارة، تحت ضوء القمر. أطلت حواء ورأت الشبح القلق، وغضب خطواته. رجعت إلى جانب آدم مسرعة ولم تستطع النوم.

في اليوم التالي، ذهب قايين مع أكليا إلى الحقل. ظن آدم أنه صار أكثر طمأنينة. وظلت لولوا هائجة إلى أن رجعا. ولم تكن حواء قادرة على تهدئة الضجة التي تعتمل في داخلها. أيكون الخريف، فكرت، ورؤية كيف يموت كل شيء ببطء. الأشجار تتجرد من أوراقها، الليل الذي يقطع فيه نعيب البوم صوت خطى لا وجود لها إلا في مخيلتي. العالم متوتر، منقبض، يذكرها بتوقف الهواء بعد أكل ثمرة شجرة معرفة الخير والشر.

احتضنت الأم ابنتها أكليا.

- قايين لا يحبني - قالت البنت -. لا قايين يحبني ولا هابيل ولا لولوا ولا أبي. أرى قطيع القرود وأرغب في أحيان كثيرة في الذهاب معها.

- ولكنك لست منها يا أكليا.

- أشعر بأنني أحسن حالاً. لا أحد منها يصدني.

- ما الذي تعرفينه أنت يا ابنتي؟

ـ أعرف أن قايين لن يتزاوج معي. فما الذي تعرفينه أنت يا أماه؟

ـ أنكِ لست قرداً.

ـ وما أهمية أن أكون كذلك؟ سأعرف على الأقل ما أنا.

ـ ولكنك تفكرين.

ـ وكيف تعرفين أن القرود لا تفكر؟

ـ إنها تعيش وحسب. لا تتكلم.

ـ وهل هذا سيئ؟

ـ لا أدري يا أكليا. أحياناً لا أعرف ما هو الخير وما هو الشر. اهدئي. نامي.

فكرت حواء لوقت طويل في كلمات أكليا. وبينما هي ترى وجهها تذكرت القرد الذي دعاها لتسلق شجرة في الوادي ثم دلّها بعد ذلك على طريق العودة إلى المغارة. احتضنتها. بكت دون أن تُصدر ضجة. وبللت دموعها شعر ابنتها.

28

انهمك قايين في زراعة بذوره مبتعداً عن الجميع. جمع محصول العدس، والقمح، وقلب الأرض للزراعات التي ستظهر في الربيع. كان يرجع إلى المغارة في أوقات مفاجئة. يراقب لولوا وهابيل. ويرفض التكلم مع أكليا.

قاوم آدم الخضوع للحزن الذي يتهددهم. فقد تمكنوا من البقاء حتى الآن وسيواصلون البقاء. سيتكاثر هو وحواء إذا لم يفعل أبناؤه ذلك. ومع الوقت سيهدأ قلق قايين. وإذا كان هو وحواء قد تحملا ضياع الفردوس، فلا بد لهما من الصمود. يجب الانتظار. الزمن يمضي ويحمل معه الرفض، ويتقبل أحدنا ما هو غير قادر على تغييره. كانت عينا حواء محاطتين بالزرقة. فهي تكاد لا تنام.

عاد روتين الصيد. فالشتاء يقترب وعليهم الاستعداد لليالي البرد والظلام، للأرض القاحلة والأشجار العارية. وعاد هابيل وآدم إلى الخروج معاً. وكانت أكليا ولولوا وحواء يجمعن الفطور والأعشاب والأسماك.

كانت الليالي متوترة، مثقلة بالضجيج ووقع خطوات. كانت حواء تغمض عينيها بقوة لا تريد رؤية من الذي يمشي في الخارج. وتجبر آدم على البقاء ساكناً. وفي فجر أحد الأيام بدا لها أنها تسمع صوت قطيع قرود في الجانب الآخر من الخندق. استوت جالسة

وبحثت عن أكليا ولم تتمكن من رؤيتها، ولكنها كانت هناك في الصباح مثلما هي دائماً. لقد كان حلماً، قالت حواء لنفسها.

حلّ اليوم الذي خرج فيه قايين من انزوائه. وظنت حواء أنه ربما سيُتاح لها العودة للنوم كما في السابق وليس النوم القلق الذي تقطعه أصوات لم يعد يهمها أن تعرف إن كانت حقيقية أم متخيلة. رأت قايين يقترب من هابيل ورأتهما يتبادلان الحديث، وكان عليها أن تبتعد لتخفي دموع الراحة والفرج.

في صباح اليوم التالي خرج الأخوان معاً. رأتهما حواء يبتعدان ملفوفين بجو وديع. وابتسم آدم لزوجته وهو منحن فوق الثلم الذي يشقه لتحويل قناة من النهر واختصار المسافة التي يجب قطعها لإطفاء الظمأ.

كان النهار يمضي خفيفاً وبلورياً. وعند الغسق، بينما حواء تلون أوان من الفخار، وأكليا تشحذ صنانير، وآدم ينهي قناة الماء. جعلهم صخب تكسر الأوراق اليابسة تحت خطوات شخص يركض يرفعون رؤوسهم.

خرجت لولوا من بين الشجيرات لاهثة.

ما الذي قالته عينا لولوا وزعزع حواء التي نهضت على عجل؟

ـ ماذا جرى؟ ـ سألتها.

فتحت لولوا فمها. لم يخرج منه أي صوت.

ـ ماذا جرى ـ كررت الأم.

ترك آدم وأكليا ما كانا يفعلانه.

ـ قايين ضرب هابيل. هابيل لم يعد يُحدث ضجة. إنه على الأرض، وعيناه مفتوحتان.

بدأت لولوا الكلام. قالت إنها في وقت مبكر من بعد الظهر، بينما كانت تحوك بعض السلال، رأت أنه لا جدوى من محاولة جعل يديها تتابعان إيقاع أفكارها. ودفعها القلق إلى التصميم على الخروج للبحث عن قايين وهابيل. ولشدة جزعها ذهبت دون أن تخبر أحداً، لأنها كانت تشعر برأسها يعج بحشرات تحوّم فيه، وأعداد كبيرة من العصافير دون وجهة تفتح أجنحتها وهي حبيسة في صدرها. وبسرعة ساقيها وصلت دون تأخير إلى حقل القمح. تساءلت إلى أين يمكن أن يأخذ قايين أخاه هابيل، لأنها لم تجدهما هناك، ولم تجدهما كذلك حين صعدت مع مجرى النهر، حيث تنمو الفطور، ولا حيث تطل ثمار القرع برؤوسها البرتقالية. فكرت في المغارة القديمة، وحقلي أشجار التين والكمثرى. ركضت لاهثة. وفي طريقها كانت ترتعب القرود والخنازير البرية. وفي أثناء ركضها، جرّحت الأشواك جلدها. وحين وصلت إلى بستان أشجار الكمثرى، شمت رائحة قايين. لقد كان هناك، ولكنه كان قد رحل. شحذت حاسة شمها، واستدارت باتجاه الجبل المتوحد، صعدت إلى بعض الصخور لترى إن كانت تلمح من هناك الأخوين. رأت شبحاً فوق كومة من التراب. ركضت إلى هناك صارخة لتخبر قايين ألا يذهب، وأن ينتظرها.

وعند وصولها انحنت لتهدئ الألم الحاد الذي يخترق أضلاعها بسبب الركض.

ـ ظننتُ أن هابيل ينام ممدداً على الأرض، وأن آدم يسهر على نومه إلى جانبه. ولكنني سمعت بعد ذلك أنين قايين. رأيته يضع رأسه بين ركبتيه. كان يترنح إلى الأمام والخلف ويداه معقودتان وراء رقبته. وما إن رآني حتى أطلق صرخة. وانفجر بالبكاء. ما الذي جرى لهابيل يا قايين؟

«وقال لي: إنه ميت يا لولوا، لقد قتلته.

إنه ميت يا لولوا، لقد قتلته. إنه ميت يا لولوا، لقد قتلته. إنه ميت يا لولوا، لقد قتلته. سمعت حواء الجملة وتلاشت كل كلمات العالم باستثناء هذه الكلمات. كانت تريد أن تفكر ولا تجد سوى إنه ميت يا لولوا، لقد قتلته. وكانت كما لو أنها ترى تلك الكلمات، ترى الصورة التي تصفها لولوا: هابيل على الأرض وقايين يقول ذلك مرة بعد أخرى.

تابعت لولوا الكلام.

ـ قتلته؟ سألتُه دون أن أتمكن من فهم ما يعنيه. فكرت في أننا لم نر قط أحداً منا يموت. فكرت في أن قايين قد أخطأ. عندئذ ركعت بجوار هابيل وبدأت أناديه. رأيت الدم تحت رأسه. هالة حمراء. رأيت أن هابيل ينظر بثبات إلى السماء. هززته. توسلتُ إليه أن يستيقظ. كان هابيل بارداً، جليدياً، مثل ماء النهر. لن يستيقظ، قال لي قايين. وقال لي إنه قد حاول إيقاظه. وقال لي إنه لم يعد يُسمع أي صوت في داخله. وصرخ أنه قد قتله. وقد قتله ـ أجهشت لولوا مطلقة لبكائها العنان ـ، قتله. هذا صحيح. أنا رأيته. إنه ميت. لا يتحرك. لا يتكلم. ينظر بثبات. وهو بارد جداً. قتله قايين، لقد قتله قايين! لم يشأ فعل ذلك ولكنه قتله. مسكين قايين. ما الذي سيحل بنا؟ أين هو هابيل؟ أين هو الموت؟ ماذا سنفعل كي نعيده؟

لم يكن أي منهم قد مات قط، فكرت حواء. وفكر آدم في أنه لا يمكن لهم أن يموتوا.

تذكرت حواء الحيّة: ليس من السهل الموت، كانت قد قالتها.

إلوكيم لن يسمح بحدوث ذلك، قال آدم. فهو وحواء ألقيا بنفسيهما قبل زمن من أعلى الجبل معتقدين أنهما سيموتان، ولكنهما استيقظا في النهر دون أن يصابا بأدنى خدش.

- هيا بنا يا لولوا، أوصلينا إلى حيث أخواكِ.

29

ركض الأربعة دون توقف. ركضوا عبر المشهد الخريفي.

كان الظلام قد بدأت يخيم. وفي السماء كانت السحب تلتهب بضوء الغسق الأحمر، والأرض القاتمة والمعادية تعيد إليهم وقع أقدامهم التي تسقط إيقاعية على الأرض.

قطيع. إنهم قطيع مذعور. ولدى مرورهم تحلق الطيور عالياً. وتشم الحيوانات رائحة كربهم. ولا يقترب أي منها.

إنه ميت يا لولوا، لقد قتله. تريد أن تمحو الكلمات، ولكنها تدوي مثل وقع كعوب تنزل متتالية على الأرض. وماذا إذا كان الأمر صحيحاً؟ إذا كان قايين قد قتل هابيل؟ جميعهم يعرفون كيف يقتلون، بمن في ذلك هي نفسها. فالأسماك تموت في سلالها. ذيولها تضرب جوانب السلة أثناء وجودها في الماء.

ولكن، قتل آخر مثلهم؟ كيف يمكن لقايين ألا يجرب قوته؟ لقد قالت لولوا إن قايين ضربه بحجر. وهكذا يقتل آدم الأرانب.

هو أخبرها أنه هكذا قتل الدبة التي مزقت كلبه. ما الذي فعله آدم، ما الذي فعلته هي نفسها عند قتل أول مخلوق؟ أية قوى قاسية أطلقاها من أجل البقاء، من أجل الأكل؟ ولماذا قدّر إلوكيم ذلك كله؟

أكان يعرف ما الذي يفعله؟ أم إنه يفعل ذلك كله باللامبالاة التي يلون بها السماء، ويكوّن بها الأزهار وأجنحة الطيور؟ أتراه

يفكر؟ وإذا كان لا يعيش مثلهم، كيف يمكن له التصرف بحيواتهم، وتقرير ما يتوجب فعله وعدم فعله؟

أشارت لولوا إلى الرابية. صعدوا. كانت أكليا تلهث، تتعثر. ورأتها حواء تستند إلى يديها كي تدفع جسدها، كي تتقدم بسرعة أكبر.

- انتبهي ليديك يا أكليا.

نظرت تلك إليها بعينيها العذبتين. لم تتكلم. لم تفعل شيئاً سوى إصدار أنّة كئيبة وحادة.

رأى آدم صورة هابيل ممددة على الأرض. لقد قتل الكثير من الحيوانات ولا يمكن له ألا يعرف الإشارات. ولكنه ركض ليلمسه. وكان أول من دس رأسه في صدر هابيل. كان بكاؤه مبحوحاً، فسيحاً. امتلأ الفضاء بالأنين. كان نداء... تقبلاً للهزيمة.

اقتربت حواء ببطء. كانت ساقاها ترتجفان. تذكرت أحاسيس هابيل في بطنها. غشاء ودم جسده الصغير. توقفت عيناها عند باطن قدمي الفتى. كانتا مدبوغتين. ناعمتين، كبيرتين. وأصابعهما. أقدام أبنائها الصغيرة المحببة. لم يفتها أي شيء أكثر من أقدامهم عند ولادتهم. الأقدام والآذان الصغيرة، صوان الآذان المتعرج مثل حلزون. اقتربت أكثر. رأت عينيه الثابتتين. انحنت ولمست جفنيه لتطبقهما. فعلت ذلك دون تفكير. إنها معرفة الخير والشر.

هابيل الوسيم. إنه نائم. مرت بيدها على جبهته. كان جلده بارداً. سرى الحزن بطيئاً في جسدها، كما لو أنها تمتلئ كلها بالماء حتى تفقد القدرة على التنفس. جلست بجانب رأسه. داعبته. أرادت أن

تعانقـه، أن تـضمه إلى صـدرها، تحتـضنه بقـوة، تواسـيه. كـم أنـت وحيد! فكرت. أشد وحدة منهم الذين هم وحدهم.

كـان آدم يبكـي. وكـان البكـاء يخـرج مـن مكـان لا يبـدو أنـه فـي بدنه، وإنما فـي باطن الأرض نفسها. أمسكت حواء رأس هابيـل ووضعته على حضنها.

ـ ساعدني يا آدم، ساعدني على احتضانه، ضعه بين ذراعي.

ساعدها آدم. واحتضنت هي ابنها. هزته. فكرت: لا توجد طريقة لبكاء هذا الألم. كانت الدموع تسيل على خديها، وتتسكب على صدرها. شدّت هابيل إليها. أين هي حياتك يا هابيل؟ لماذا لا تتحرك؟

كان ثقيلاً جداً، ومهجوراً جداً. لمست رأسه. لمست الجرح فـي الجمجمة. لم يعد ينزف. صار بطنها أجوف، كانت تشعر بفراغ الابـن كما لو انفصل عنها. الماء وحده يغمرها. ماء خانق إلى أن تمكنت من إخراج الأنّة العميقة، وغاصت فـي أسـى معرفتها أنها لـن تـرى هابيـل حياً إلى الأبد. إلى الأبد.

رأت أكليا تقفز وتئن. ورأت لولوا.

ـ أين هو قايين ـ سألت ـ أين هو ابني قايين؟

ـ لا أعرف ـ قالت لولوا ـ لا أعرف.

ابحثي عنه يا لولوا. ابحثي عنه ليساعدنا فـي حمل هابيـل إلى المغارة. لا يمكننا تركه هنا.

تقدم الليل. أشعل آدم ناراً. كل منهما على أحد جانبي هابيل. آدم وحواء يرافقان ابنهما تحت سماء مظلمة ومترعة بالنجوم.

أكليا غلبها النعاس ونامت.

ـ أتـذكر عنـدما وعيـت أنـني كـائن ـ قـال آدم ـ أتـذكر ذلـك وأفكر في أنه كان من الأفضل ألا أكون أبداً.

ـ وأنا أتذكر عندما أكلت ثمرة الشجرة. ما كان عليّ أن أفعل.

ـ ما كان سيموت هابيل. لقد بدأ كل شيء معك يا حواء ـ رفع بصره. نظر إليها بغضب محزون.

ـ لولاي ما وجد هابيل ـ ردت عليه ـ. وما كنا سنعرف الحب. معي بدأت الحياة التي يجب أن توجد. لم أفعل سوى إنجاز قدري.

ـ والموت بدأ معكِ.

ـ أنا منحت الحياة يا آدم. ومن بدأ القتل هو أنت.

ـ من أجل البقاء.

ـ لستُ أجرمك، ولكننا عندما نتقبل أنه لا بد من القتل من أجل البقاء، نسمح للحاجة بأن تسيطر على وعينا، ونتقبل القسوة. وانظر الآن كيف أتت القسوة لتحط في حياتنا.

ـ كان ذلك مقدّراً. مثلما كان مقدّراً أن تأكلي الثمرة.

ـ لو أن إلوكيم لم يجبرنا على أن يبادل كل من التوءمين أخته، فربما ما كان لهذا أن يحدث.

ـ لماذا خلقنا يا حواء؟ لا أظن أن أتحمل من المعاناة أكثر مما عانيته.

ـ الحيّة تقول إن إلوكيم خلقنا ليرى إن كان بإمكان نسلنا العودة إلى نقطة البدء واستعادة الفردوس.

ـ أترانا نحن البدء؟

ـ ما قالته لي إننا كنا في الحديقة بالصورة التي أراد إلوكيم أن يراها في نهاية خلقه. وعندما أكلنا ثمرة التين، قلب هو اتجاه الزمن. والآن، من أجل العودة إلى نقطة البدء، سيكون على أبنائنا وأبناء أبنائهم، سيكون على الأجيال التي ستأتي بعدنا أن تعيد البدء، أن ترجع القهقرى. هذا ما قالته.

ـ وإلى أين علينا أن نرجع؟

ـ لا أدري يا آدم. أظن أننا سننتهي إلى قطعان. ربما كانت أكليا تتضمن المستقبل. وربما هي تبدو لك غريبة لهذا السبب. ربما هي الماضي الذي لم نعرفه نحن.

ـ شديدة السذاجة أكليا.

ـ وبدئية.

ـ ولكنها ستقتل أيضاً.

ـ قايين قَتَل.

صمتت حواء.

ـ يؤلمني هذا الابن بقدر ما يؤلمني الآخر ـ قالت في النهاية.

ـ ألا تشعرين بأنه علينا معاقبته؟

ـ معاقبته؟ أؤكد لك أنه لا يمكن لأي عقاب نفرضه عليه أن يكون بقسوة ما يعانيه بنفسه. سيذهب مع لولوا. إنني أحس بذلك. أظن أنهما مثلي ومثلك. لقد عصيا.

30

كان النهار قد بدأ بالبزوغ عندما رجع قايين مع لولوا. جثا على ركبتيه أمام آدم وحواء.

ـ لم أشأ قتل هابيل ـ قال بأنين ـ. لم أكن أعرف ثقل يدي.

ـ انهض ـ قالت حواء.

نهض قايين واقفاً. رأت حواء الدائرة العميقة على جبينه. علامة قرمزية. كان اللحم الحي محروقاً.

ـ من وسمك هكذا؟ ـ سأله آدم.

ـ إلوكيم.

ـ كيف؟ أخبرنا ـ تدخلت حواء.

ـ هابيل قال إنه سيكون أباً صالحاً لأبناء لولوا، وأنني سأكون سعيداً مع أكليا ـ أجهش في البكاء ـ. قلتُ له إنني أنا ولولوا شيء واحد، ولا يمكن لأحدنا أن يوجد دون الآخر. ولكنه قال إن مشيئة إلوكيم أن يتزاوج هو مع لولوا. فضربته. لم أكن أعلم أن ضرباتي ستقتله. اختبأت. وعندئذ سمعت صوت إلوكيم. سألني عن هابيل. سألني عن هابيل! هو الذي يعرف كل شيء! فغضبت ـ بكى قايين ـ. أحارس أنا لأخي هابيل؟، هكذا أجبته. فقال إن دم أخي يستصرخه. ولعنني! وقرر أن الأرض لن تعطيني ثمرها. وأنني سأكون هارباً أهيم على وجهي في الدنيا. تضرعتُ إليه، سجدت له. لا يمكنني تحمل مثل هذا العقاب العظيم، قلت له. ستقتلني الحيوانات، ومن سيأتون

في ما بعد سيقتلونني. عندئذ جعل علامة في جبهتي. سيرون العلامة ولا يقتلونك، قال. ومن يقتلني سيُنتقم منه سبع مرات.

تحرك قايين كأنه يريد أن يلقي بنفسه بين ذراعي آدم. كان يبكي ويرتجف. ولكن آدم دفعه جانباً. أمسكته حواء بين ذراعيها، ولكنها لم تتوصل إلى ضمه إلى قلبها. انفصل قايين عنها.

ارتمت لولوا على الأرض. ضربت جبهتها بالتراب. فكرت في هابيل، وفي جسد قايين الذي أحست به قبل أيام قليلة في جسدها، فكرت كيف ستحبه في العزلة التي سترافقهما والتي سيعيشان فيها. بكت في عويل كأنه ولولة الرياح، كما لو أن عاصفة قد استحوذت عليها، وأن بروقها ورعودها تدمرها.

حملوا في ما بينهم جثة هابيل إلى المغارة القديمة التي ولد فيها.

نظفت حواء الدم عن رأسه. تذكرت أول مرة نظفته فيها من الينبوع، وكم كان ناعماً وزلقاً ودافئاً وهو خارج للتو من بطنها؛ وكم هو متصلب وبارد الآن. تركت الهواء يخرج من رئتيها. وولولت مثل ذئبة. وظل الألم على حاله مثل جرح طري لا يمكن لشيء أن يشفيه.

أحرق آدم راتنجاً زكي الرائحة بجوار ابنه. فكرا في حرق الجسد في الموقد كي يصعد دخان الأضحية حتى إلوكيم. أين كنت يا إلوكيم عندما كان ابناي يقتتلان؟ استصرخ آدم بصمت. وتوسلت لولوا أن يضعاها في التراب. لأن هابيل لم ينجب أبناء، ويمكن لجسدها على الأقل أن يصنع غابة ويمنح الحلاوة للأشجار. وتخيل آدم ابتسامة ابنه وهو يظهر بين أوراق إحدى الأشجار. من تراب أنت وإلى التراب تعود. تراب خصيب.

ثلاث مرات دفنوا هابيل. والأرض التي لم تكن قد عرفت بعد موت كائن بشري لفظت جثمانه مرة ثم أخرى. كانوا يغلقون الحفرة فتنفتح. ولم يكن ممكناً دفنه إلا في المرة الثالثة، وبعد أن سجد آدم وحواء وطلبا من الأرض أن تتقبله، عندئذ فقط انغلقت الأرض على جسد هابيل وحفظته إلى الأبد.

31

كان على هابيل أن يغادر إلى أرض نُود. قال إن إلوكيم أمره بذلك.

رفض آدم أن ينتظر لرؤيته يرحل. رجع وحده إلى المغارة التي بلا ذكريات. لم يبق له إلا البنات، قال. فابناه قد ماتا.

أنبت حواء قسوته. فمن أجل الانتقام لموت كلبه قتل بيديه دبة كانت تدافع عن صغيرها. وإنه يعرف الغضب غير الواعي حين يفقد المرء ما يحبه.

- عسى أن يأتي الزمن الخالي من القسوة الذي تحلمين به يا حواء.

- سامح قايين.

لم يتراجع آدم. وتذكرت هي أنها تساءلت ذات مرة إن كان إلوكيم قد قدّه من صخرة جبل.

ظلت حواء مع أبنائها في مغارة الرسوم.

لم يتبادل قايين ولولوا أي كلام تقريباً. كانا يوضبان أحجار العمل المشحوذة والبذور والأغطية التي سيحملانهما معهما إلى شرقي جنة عدن. لقد عرف قايين تلك الأراضي في إحدى رحلاته. ويقول إنها خضراء. وإن لولوا لن تعرف الجوع ولا العطش حتى لو لم يعطِ ما ستزرعه يداه أي ثمر.

لم تتكلم أكليا منذ موت هابيل. كانت تتكور على نفسها في فجوة في إحدى الصخور، في ظلمة عمق المغارة، لا ترد على نداءات

حـواء. وعنـدما تقـترب هـذه منهـا، تـصوب إليهـا عينيهـا العـذبتين والمذعورتين. وبنسيانها الكلام، بدت كما لو أنها قد فقدت كذلك العقل والوعي لتسلم نفسها دون اعتراض إلى حياة القرود. كانت حواء تراقبها. ولم تكد تنام لخشيتها من أن ترحل مع قطيع القردة الذي مرّ قرب المغارة في الليل.

وفـي الـصباح رأت قـايين ولولـوا يغتـسلان عنـد الينبـوع قبـل أن يخرجا إلى عدم يقين حياة التشرد. رأت يدي قايين وأحست أنها تلمس من جديد الجرح العميق في رأس هابيل. ودون أن تتخلى عن حبها لـه، تمنت لـه حيـاة عـوز تـضطره إلى التـذلل والعـار. كانـت تمتلك المعرفة الرهيبة لنسيج ابنها، تعرف بالضبط اللحظة التي التوت فيها فروعه، والجـذور الظمـأى الـتي لم تُسقَ قـط. تـدرك أصـل العنـف ولكنهـا لم تتوصل إلى فهمه. ذلك العنف، على وجه الخصوص. العنف القادر على قتل الأخ.

بكت لولوا عند وداع أكليا التي نظرت إليها ورفعت ذراعيها لا لتعانقهـا، وإنمـا لتـضعهما علـى رأسـها بالـذات، وكانـت عيناهـا اللامعتان تنظران إليها بفضول. ولم تبكِ لولوا وهي تودع حواء. كانت متكـبرة، تـرفض الـضعف. وكانـت تحتمـي وراء جمالهـا، ولكنهـا كانـت تحـب قـايين قبـل كـل شـيء، ولا تريـد أن تُظهـر أمـام أمهـا أي شرخ بينهما هما الاثنان.

رأت حواء صورة ابنيها تتضاءل وهما يجتازان السهل، فاشتاقت إلى آدم. كانت تأمل بمجيئه.

جمدها الحزن في مكانها. وشيئاً فشيئاً راحت عيناها الثابتتان تنظران إلى المغارة ذات الجدران المغطاة بالرسوم. فكرت في الأثر

الذي خلفته هذه الصور محفوراً على قشرة قلبها قبل أن توجد على الحجر. فكل رمز فج أو انسيابي أعاد لها ما كانت ترغب في اكتنازه من ماضيها وحفظه من النسيان. لأن كيانها كله، بعد موت هابيل، كان مفتوحاً وبلا حماية. ولخصت حواء دون زيف أو ابتكار وجودهم الفريد. عرفت أنها هي وآدم، على الرغم من التمزق، يحتفظان بذاكرة أبعد من الفردوس؛ وستظل هذه الذاكرة تحوم وتطفو فوق حياتيهما. لم يفقداها قطّ. ولا يمكنهما فقدانها مادام أثرها الذي لا يمحى مرسوماً في داخلهما.

وظهرت الحيّة.

قبل الرجوع إلى حيث آدم، أخذت حواء أكليا لتعرفها على البحر.

كان شعر الابنة قد عاد الظهور وتغطية خديها خلال أيام قليلة. وكان جلد يديها وقدميها الطويلتين والحساستين قد تصلّب مكتسباً لوناً داكناً. بدت أكليا مصممة على السماح لليل بأن يسكنها. كانت تمشي ممسكة بيدها، وديعة وخرقاء، مفرغة من الكلمات. وأحياناً، خلال الطريق، كانت تفلت يدها وتركض مستعينة بالاستناد إلى ذراعيها. بهرها البحر. قفزت فرحة على الرمل، وغطت عينيها بذراعها لتتفادى التوهج القوي. تركتها حواء تتقافز، وطلبت منها أن تجمع قواقع.

جلست على الصخرة التي حلمت عليها بأنها رأت امرأة ترتدي الريش، وتبين لها في النهاية أن وجه تلك المرأة هو وجهها هي نفسها. سمعت صوت الحيّة قبل أن تراها.

ـ انظري إلى الصغيرة أكليا. الماضي والحاضر يركضان معها على الشاطئ.

ـ ما الذي تعنينه؟

ـ لقد عادت إلى البراءة يا حواء.. إلى براءة سابقة على الفردوس. لقد قفز التاريخ منك إليها الآن، وزمن طويل وبطيء آخذ بالبدء.

ـ لا أدري إن كان عليّ أن أصدقك. ولماذا أكليا؟ لماذا لا يكون قايين أو لولوا؟ لماذا لا يكون آدم أو أنا؟

ـ جميعنا أنجزنا غاياتنا يا حواء. فمثلما رسمتِ أنت على جدران المغارة رموز ماضيكِ، رسم إلوكيم فينا الرموز التي ستتفاهم بها البشرية فيما بينها.

ـ وأكليا؟

ـ أكليا هي حقيقة إلوكيم. أما نحن فأحلامه.

ـ قلتِ إن النهاية كامنة في البداية.

ـ نهاية نسل أكليا سيكون الوصول إلى البداية. والتعرف إليها كما الذاكرة الملحة التي أرادوا العثور عليها بتشكيل وتدمير تاريخهم الخاص.

ـ وهل سيعودون إلى الفردوس؟ وماذا بعد ذلك؟ هل سيساءلون عما هو في الغيب؟ هل سيضجرون؟

ـ ربما لا. لن يعانوا انبهار البراءة، الرغبة في معرفة المجهول. لن يحتاجوا إلى أكل ثمار محرمة كي يعرفوا الخير والشر. لأنهم سيحملونهما معهم. سيعرفون أن الفردوس الوحيد هو حيث تكون الحياة الحقيقية، حيث يمتلكون الحرية والمعرفة.

ـ وهل تظنين أنهم سيتوصلون لأن يكونوا أحراراً حقاً؟ أتظنين أن إلوكيم سيسمح بذلك؟

ـ الوجود هو لعبة إلوكيم. وإذا ما وجد نسلك الوئام، فإن إلوكيم سيرحل. أظن أنه يتمنى في سره أن يُمنح هبة النسيان والتحرر من عزلة سلطته. فهكذا يمكنه الرحيل لإنشاء عوالم أخرى.

ـ وهل سترحلين معه؟

ـ سأرحل إذا ما تمكن نسلك من فهم الإشارات. سأذهب إذا ما انتهى بنا الأمر، أنا وهو، لأن نكون ضحية خلقنا.

نظرت حواء إلى الحيّة بأسى. وبينما هي تراها امتلأ جلدها الحرشفي بريش أبيض، وتدبب رأسها المسطح. وفي ثوانٍ قليلة غطاها ريش ناعم لامع. ومرة أخرى، كما في حلمها القديم، رأت حواء وجهها بالذات ينعكس في تلك المخلوقة قبل لحظات من تحللها واختفائها إلى الأبد.

دعت أكليا. أمسكت بيدها وبدأت مسيرة العودة إلى المغارة.

خلفتا وراءهما رائحة ملوحة البحر. اجتازتا الهضاب المنخفضة. أمضيتا الليل تحتضن إحداهما الأخرى تحت بعض الصخور. وعند الفجر نزلتا المنخفض الغابيّ حيث ضلت حواء الطريق قبل وقت طويل. كان ذهب الخريف يضيء أشجار السنديان والأوراق الكثيفة. ضغطت حواء بقوة على يد أكليا. وكانت أكليا تنظر بقلق إلى قمم الأشجار. كانت تتقافز في طفرات صغيرة. تهرش رأسها.

رأت حواء اقتراب قطيع قردة ضامرة وحيوية تتأرجح على الأغصان.

أحست بعينيها مغرورقتين. كم خسرت، فكرت.

أُفلتت أكليا من يدها. وقبل أن تتركها حواء تمضي انحنت

عليهـا وضـمتها بقـوة إلى قلبهـا. تـذكريني يـا أكليـا ، قالـت لهـا ، تـذكري كـل مـا عـشته. فـي يـوم مـا سـتتكلمين مـن جديـد. والآن اذهبي. اركضي يا ابنتي ، اذهبي واستعيدي الفردوس!

واصلت حواء طريقها. وكـان رذاذ خفـيف قـد بـدأ بـالهطول علـى العالم.

وبعد ذلك كان المطر.

مانغوا ـ مزرعة سانتا مونيكا ، 2007 ،



جيوكوندا بيللي

شاعرة وروائية نيكاراغوية، ولدت في العاصمة ماناغوا عام ١٩٤٨. من أعمالها الشعرية «»على العشب«»، «خط النار»، «رعود وقوس قزح»، «حب متمرد»، «من ضلع حواء»، «عين المرأة»، «حشدي الحميم».

روايتها الأولى «المرأة المسكونة» (١٩٨٨) تُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة، ولقيت نجاحاً واسعاً لاسيما في إيطاليا وألمانيا، حيث تجاوز عدد نسخها المليون، في أكثر من خمس وعشرين طبعة. ونالت عيها عدة جوائز.

ومن رواياتها: «صوفيا النبوءات»، و«واسلالا»، و«رقّ الغواية». ولها أيضاً «البلاد تحت جلدي»، وهي مذكراتها خلال الثورة الساندينية.

الرواية

ربما كانت قصة أصلنا السحرية هي أكثر ما فتن المخيلة البشرية على مرّ العصور. ومع ذلك، لم يكرس الكتاب المقدس لهذه القصة سوى أربعين آية تستعرض قصة آدم وحواء في العهد القديم. ولكن، كيف كانت حياة هذين الكائنين البريئين والشجاعين، وكيف كان ذلك العالم الذي يتوجب عليهما أن يعيشا فيه.

يشترك الشعر والغموض في هذه الرواية ليقدما لنا الرجل الأول والمرأة وهما يكتشفان محيطهما، ويختبران القلق والحيرة حيال العقاب، والقدرة على منح الحياة، وقسوة القتل من أجل البقاء، ودراما حب الأبناء وغيرتهم.

نالت اللامتناهي في راحة اليد جائزة بيبلوتيكا بريفي الإسبانية عام ٢٠٠٨ لتفردها وقدرتها على استحضار عوالم ما قبل العالم. فقد خلقت جيوكوندا بيللي عالماً جديداً استخرجته من الكتب المقدسة الكبرى، ومن النصوص المنحولة أو المحظورة، لتصوغ أكثر الحكايات العجيبة التي يمكن تصورها.

علي مولا

ISBN 2-84306-018-X

9 782843 080180

COVER DESIGN BY: RIYADH NEAMA